أيمن الدبوسي

انتصاب أسود





منشورات الجمل

رواية

أيمن الدبوسي: انتصاب أسود


مكتبة
الفكر الجديد

أيمن الدبوسي

انتصاب أسود

رواية

منشورات الجمل



أيمن الدبوسي: انتصاب أسود، رواية
الطبعة الأولى ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



مَا مِنْ انْتِصَابٍ إِلاَّ وَيَعْقُبُهُ ارْتَخَاءٌ.




مكتبة
الفكر الجديد

تسنيم

في حانة بابيلون بالمنزه الأول يعمل نادل ظريف يُدعى تَقي. لم تكن «تقي» كُنية يُنادونه بها هناك، وإنما اسمه الحقيقي. كان شاباً مولعاً يحذق عمله ويقوم به في خفة ومرح. «تقي خذ، تقي رد، تقي تعال»، الكل كان يجد لذة في مُناداته باسمه ذاك، وكان مُستملحاً من الجميع، وأعرف بعضاً من صحبي ممن يروحون لحانة بابيلون، لا لشيء إلا للإشارة على تقي، والتمتع بالقيام بذلك.

تسنيم كذلك كان لها ولع خاص بتقي. هي لا تقبل أن يسقيها نادل غيره. وكانت دائماً ما تترك له بقشيشاً سخيّاً. في المقابل، فإن طاولتها لم تكن لتخلو لحظة من شتى أنواع المُكسرات، وما يُمكن أن يُرافق الشرب. وتقي، لمّا يخفّ عنه الطّلب، وتوشك الحانة على الإقفال، يجلس إلى طاولة تسنيم ليُمازحها ويُشاربها.

في البابيلون تعرفتُ على تسنيم، أشهرا قليلة قبل إندلاع الثورة. كان باري المُفضّل في الرّبيع، وهناك التقيتها ذات مساء، في التّيراس المكشوف. أذكر أنّي رأيتها هناك قبل ذلك أكثر من مرّة. لكنّي لم أنتبه إليها أبداً. ورغم أنّه لم يكن لدي ذوق محدّد في النساء، فإنّ تسنيم، لم تكن لتدخل بسهولة ضمن لائحة اختياراتي الواسعة. ولن أكون قاسياً



معها، رغم أنها فارقت الحياة الآن، حين أقول إنها كانت ضخمة، أعني ضخمة جداً.

في ذلك المساء دخلنا البابيلون في نفس الساعة تقريباً. كنتُ وحيداً، وقد جلستُ غير بعيد عنها. بينما جلستْ هي في ركن مُميّز اعتادت الجلوس فيه، لتُشرف منه على الحديقة الصغيرة. البيرّة جاءتنا على نفس الطبق، وفي نفس الوقت تقريباً. كنتُ أجلس قُبالتها وقد رأيتها تُنهي جعّتها الأولى في جرعة طويلة مُحكمة، قبل أن تضحك من ذهولي وتمسح الرغوة عن شفتها العُليا وتضع الكأس على الطاولة. لن أقول إن ذلك الأمر هو الذي جعلني أفتن بتسنيم. ولكن، لنقل إن ذلك هو ما جعلها تستأثر باهتمامي في تلك اللحظة. فعلتُ نفس الشيء بجعّتي، وأشرت بسرعة إلى تقي أن يأتي بأخرى، لكنها سبقتني بالإشارة إليه. البيرة جاءتنا مرّة أخرى في نفس الوقت. وتسنيم أنهت بيرتها الثانية في جرعة أخرى مُحكمة، من دون حتى أن أنتهي من إفراغ القارورة الخضراء في الكأس. ما هذه الآفة؟ تمتمت، وهي تُشير إلى تقي، مُجدداً، أن ائتِ بأخرى، مُطلقة ضحكتها القصيرة البريئة. لم أكن شرّيباً كبيراً، ولم أكن أنوي مُباراتها في الشرب. لكنّي لم أتصوّر لحظة أن فتاة يُمكن أن تستفزني وتهزمني في ذلك المجال. الأمر بات مسألة كرامة، لذا قرّرتُ أن أتحدّاها.

لم أصمد طويلاً. شرقتُ في البيرة السادسة وكاد السّائل أن يخرج من منخري، وتسنيم ما تزال تقلبُ الكأس في جوفها تلو الكأس، مُطلقة في كل مرّة نفس الضّحكة البريئة. بعد تلك الهزيمة صرنا صديقين، وصرنا نتقابل في البابيلون مرّتين في الأسبوع لاحتساء البيرة.

كانت تتحدّث كثيراً. لكن ما إن نتقدم في الشّرب حتى يعتدل دفق



كلامها وتبدأ في نثر الدّرر. أذكر أنّها انفتحت لي بيُسر. أنا كذلك انبسطتُ لها. كان ذلك ظاهراً علينا على ما يبدو. لأن تقي صار يتغافل عن خدمتنا، ويكنّ لي عداء خفيّاً، حتى إنه قلب عليّ الطبق ذات مرّة، غير مُتعمد ذلك إطلاقاً.

لمّا حكيتُ عن تسنيم لصديقي إلياس، قال إنّي بدوتُ له مفتوناً بها، ويظنّ أنّي لن أتأخر في مُضاجعتها. قلتُ له إن ذلك شبه مُستحيل. فردّ في ثقة بأن ذلك ما سيأتي عاجلاً أو آجلاً. وقال كذلك إنّه عرف تجربة مُماثلة مع فتاة لم يكن يتصوّر البتّة أنّه سيضاجعها، وكان قد تركها في البيت برهة وخرج ليشتري علبة تبغ، فلمّا عاد إلى غرفته، وكانا يشربان، حتى وجد أنّها سكرت وتعرّت، وخطّت على لحمها نصف ديوان أبي نوّاس، ممّا جعله لا يتنحّى عنها إلا بعد ثلاث نَيكات طوال.

إلياس كان على حق. لكن، وحتى وفاتها، فإني أقسم بأنّي لم أضاجع تسنيم أبداً. ولأفشي سرّاً وأقول إنّها ماتت عذراء، ونقية الرّوح، كما كانت دائماً. ومع ذلك فلن أنكر أنّي صرتُ مجنوناً بها حين سمعتها تتحدّث عن المصّ. لقد علمت أن تسنيم تؤمن بتناسخ الأرواح، وتعتقد بالطّاو، وتعدّ مصّ الأيور تمريناً روحيّاً. ويعود الفضل إليها في اكتشافي لكتابات لاو تسو. بنت الحرام كانت بارعة في المصّ وفي الحديث عن المصّ. كانت كائناً بشريّاً جديداً؛ طفرة فريدة؛ عبارة عن فم خارق؛ مخلوق بثقب واحد للأكل والشرب والتبرز والمضاجعة والمحيض. إنها إسفنجة ضخمة، مضخة هائلة، تعشق الأكل ومصّ الأيور، وخاصة شرب البيرة. وهي ذكيّة جدّاً، وحين تبتسم تُصبح تُشبه اليابانيين، لكنّ ذلك للأسف لا يبدو ظاهراً عليها. إن جسمها اللّحيم هو عبارة عن ضرب من البلادة المُعلّبة. كثافة ذُهنيّة مُتراصّة. إنّها بهيمة، خشنة الأطراف. كانت شيئاً من وراء الشطط؛ جبلاً من الأرداف يتراكم



ويتراكب. وأينما ألقيت يدك تجد بضاعتك في المتناول. لكنها مُرهفة الحسّ ومهذبة بشكل لا يُصدّق. وهي أيضاً طيّبة القلب وسخيّة. تأكّدتُ من ذلك بنفسي. وحتى لمّا صار تقي يتغافل عن خدمتنا، فإنها لم تكن تتوانى عن منحه بقشيش العادة. أذكر من جملة ما أذكر أنها بارعة في الطّبخ. ولها موهبة أخرى فريدة، ألا وهي تقليد حركات وأصوات بعض الحيوانات. كنتُ أغمض عيني وأتركها تغمغم وتتمسّح بي، حتى يُخيّل إليّ أن هرّاً ضخماً يمكث بجانبي، وأحياناً تأخذ في لعقي واشتمامي كجرو جائع. كان ذلك غريباً ومُسلياً. ولكن لا شيء، لا شيء يضاهي براعتها في المصّ.

لقد احترمتُ مشيئتها حين أعلمتني في آخر لقاء لنا بأنها تعتزم الانتحار. كنتُ مُتفهماً. من المُستحيل عليها تقبل وضعها الجديد. هي تعلم أن مرضها سيفتك بها عاجلاً أم آجلاً. الأمر مسألة وقت. وهي لن تتحمل تقضية ما تبقى لها من سنوات في حالة من العمى التّام، خاصة بعد أن ذهبت هجمة المرض الأخيرة ببصرها. التصلّب اللّويحي، ابن القحبة، كان مرضاً لا يرحم.

مضى على رحيلها الآن سنتان، ومنذُ ذلك الوقت لم أرجع إلى البابيلون، ولا أدري ما صار إليه أمر تقي. من المُستحيل عليّ تخيّل ذلك المكان من دونها. كنا نجلس في التيراس مُتقاربين وقد دسّ كل منا سمّاعة في أذنه، ونمكث لساعات نحتسي الجعّة ونستمع إلى موسيقى الميتال. وحين يستبدّ بي السّكر كنت ألتصق بتسنيم، آخذ جرعة من جعّتي وأسحب نفساً عميقاً من شعرها الفاحم الجميل، أو آخذ في لعق أذنها التي ملأتها الخرز الفضية الصغيرة. كنا نتقاسم العديد من الهوايات الأخرى. مشاهدة الأفلام البورنوغرافية، الأشرطة الوثائقية حول الحيوانات، سلسلة south park، السينما الآسيوية، الأطعمة الآسيوية،



المثلجات، وبالطبع، احتساء البيرة. كانت تربّي في بيتها عدداً هائلاً من الحلازين المائية داخل حوض ضخم للأسماك. وتعتقد أنّ روحها ستُبعث من جديد في جسم حلزون، مثلما كانت عليه في حياة سابقة.

تسنيم تعيش في فيلاّ صغيرة مع والدتها، بعد أن توفى والدها الذي كان طبيباً، بنفس المرض الخبيث الذي ذهب ببصرها. وإلى جانب المرض، ورثت عن والدها حوض الأسماك، وثروة صغيرة، قرّرت تبديدها في الشّرب، بعد أن عرفت بمرضها العضال. لم يكن لها إخوة. وكانت تمقتُ أمّها مقتاً شديداً. وهذا يعود لأسباب مجهولة شعرتُ أنّها تضايقت لما حاولتُ اكتشافها. كما أنها أبدت نفس الضيق حين حاولتُ معرفة سبب نفورها من العلاقات الجنسية العادية. كانت هامة تُحلّق، وكل ما تحت رقبتها ممنوع من اللّمس أو غير موجود. ولكنني لما سمعتُها تتحدث عن عشقها للمصّ، نسيتُ نصفها السّفلي وبدأتُ أتخيل تلك البراعات الفموية الأسطورية.

أذكر أنّي في المرّة الأولى قد خضتُ التجربة طوعاً، وتردّدتُ كثيراً قبل خوضها المرّة الثانية، ثم رفضتها تماماً في المرّة الثالثة. كان يُمكن ألا أرجع. ويكفي أن أقول لكم إنّي بعد الكرّتين، صرتُ أفهم بعمق ما يعنيه مفهوم «الفراغ» في الطّاو، والفلسفات الآسيوية عموماً. تسنيم كانت تؤلف كتاباً عن المص، لكنّ الحياة لم تُمهلها لإتمامه. لقد أطلعتني على بعض صفحاته، لكني كنتُ أفضّل سماعها تتحدث عن ذلك، لأنها تقوم به في حماس وحبّ منقطع النظير. إنّها مثلاً تعتقد أن المصّ مِنّة من الآلهة، شيء مُنزّل من فوق، والبشر إذا ما أرادوا أن ينفتح لهم في الألوهة شِقّ، ما عليهم إلا أن يتعلموا المصّ. المصّ سبيل من سُبل المعرفة، واستبطان لذاكرة الأشياء، كانت تقول. كنتُ في بداية تعارفنا أستمع إليها تتحدث وأنتظر بفارغ الصبر أن نمرّ إلى



التطبيق، ولم أكن أعير الجديّة الكافية لما تقول، حتى وقفتُ على قيمة المصّ في حياتها اليومية. إنّها مثلاً لا تلتهم ثمار الخوخ كبقية البشر. كانت تضع الخوخ في الثلاجة حتى يبرد قليلاً، ثم تسحب الثمرة الناضجة وتأخذ في معسها بعناية، مُحاذرة أن تفقأ جلدها، إلى أن يصير لحمها عصيراً. بعد ذلك تنشئ فيها ثقباً صغيراً وتأخذ في مصّ جوهرها فلا يبقى غير الجلد والنواة. وتراها تتورد عندئذ ويتدفق لسانها باستعارات غامضة، فكأنما سكنه خيال الخوخ للحظات. وكان لها لسان أحمر طويل في وسطه خرزة معدنية تبدّل ألوانها بحسب أيّام الأسبوع، والله وحده يعرف براعات ذلك اللسان المُدرّب.

لتسنيم أنف أقنى، وشفتان مزمومتان خبرتُ قدراتهما، إلى جانب لسانها المُدرّب، لمّا رأت أن الوقت قد حان أخيراً لتمصّني. لقد شعرتُ بفخر كبير وأنا أسمعها تمتدح أيري، وهي تحلق شعر عانتي لإعدادي للحدث المُنتظر. قالت إن أيري ملائم تماماً للمصّ. وليست الأيور الضخمة الطويلة، كما يعتقد بعضهم، هي أحسن الأيور. وكانت تقول وهي تفرك عانتي برغوة الحلاقة، وأنا مُستسلم لها تماماً: «الأيور الضخمة الطويلة تسد الفم وتملؤه، ولا تترك مجالاً للسان حتى يراقص الأير ويُريه ألاعيبه. كما أن الأير الضخم يضطرك للإمساك به بكلتا قبضتيك لتمرسه، فيد واحدة لا يُمكن أن تحتوي أيراً ضخماً. وهذا يشغل اليد الثانية التي كان مفروضاً أن تمعس الخصيتين في الأثناء. أما الأيور الصغيرة فتتيه في الفم وتذوب كالحلوى، كما أنها تفلتُ من اليد أثناء دعكها، ووحدها الأيور المتوسطة الحجم والمائلة نحو الطول يُمكن أن تُكرم بالمصّ. أذكر أنّي قد أفرغتُ في يدها من شدّة الإطراء، حتى إن بعضه انقذف على أنفها وشفتها العُليا، فتذوقته بلسانها وأبدت تعبيراً مُتعجباً قبل أن تعود لحلق عانتي بنظرة غامضة».



لقد حددت تسنيم الموعد الذي ستمصني فيه بعد أيام قضتها في التأمل. وحتى بعد تحديد الموعد، الذي كان الثالث من شهر مايو، لم تتوقف عن القيام بتأملاتها الليلية. فالأمر لم يكن حدثاً عادياً، كان طقساً روحياً مضبوطاً تُعدّ له نفسها مُسبقاً.

أذكر أنّها طلبت أن أمثل لديها باكراً، السّادسة صباحاً. كما طلبت مني أن آوي إلى سريري باكراً وأتجنب السّهر والشرب ليلة اللقاء. وفي تمام السادسة صباحاً، كنت واقفاً أمام باب بيتها. فتحت لي الباب في مبذل أبيض طويل، مُطرّز الحزام والحواشي. كانت مُذهلة في ذلك الثوب، وهي ترى تعبيرة وجهي المأخوذ، قبل أن تمنحني ابتسامتها الفريدة وتأخذني إلى جناحها الخاص في الفيلاّ.

طلبت مني أولاً أن أدخل الحمام وأخلع كل ملابسي، ثم منحتني مبذلاً حريرياً أسود مُزخرف الحواشي بخيوط ذهبية، فصّلته وخاطته بنفسها على مقاسي. ملمسه على الجلد كان رائعاً. أحسستُ براحة كُبرى وأنا أوثق الحزام وأدس قدميّ في خفّين وضعتهما أمامي. من ثمّ غادرنا إلى حديقة الفيلاّ الخلفيّة لتناول إفطار الصّباح. جلسنا إلى طاولة خشبية على العشب. كانت هناك ضروب من الطعام كثيرة، بعضها لم أتذوقه من قبل. أكلتُ بشراهة من دون أن أسأل عن المحتويات. تسنيم لم تأكل شيئاً، كانت لا تشرب غير الشاي، هذا إن كان شاياً فعلاً، أو هو شيء آخر دافئ. لقد نسيت أن أقول لكم إن تسنيم خبيرة في الأعشاب، وأعدّت بحث تخرجها حول فضائل عشبة اليانسون، أو حبّة الحلاوة كما يحلو لها أن تناديها. وفي حديقة بيتها أصناف أخرى من النباتات الغريبة والملونة والتي لا أعرف أسماءها.

لبثتُ أستمع إلى موسيقى هادئة، تنبعث من نافذة غرفتها القريبة،



وأنا أتابعها تقوم بسقي نباتاتها وقلع أوراقها الصفر. كانت مُنغمسة تماماً في العناية بحديقتها، تتنقل بخفة بين نبتة وأخرى. بعد ذلك رجعنا إلى داخل البيت. كانت تعد لي برنامجاً حافلاً. انتقلنا مرّة أخرى إلى الحمام. قامت بحلق عانتي وقصّ أظافري، وأنا مستسلم لرعايتها الرقيقة. ثم أتت بجهاز لإطلاق البخار وضعته قرب وجهي حتى تنفتح مسامي، وأخذت تمعس أنفي لتستخرج الدهون العالقة. كنت مطيعاً رغم أن الأمر مؤلم أحياناً. من ثم رقدت على بطني لتواصل استخراج البثور السود من ظهري. الأمر كان مُمتعاً ومجانياً. أحسستُ أنها هي أيضاً تستمتع بالقيام بذلك. في آخر حصّة التنظيف، جاءتني بمكينة حلاقة ورجَتني بلطف أن أوافق على حلق شعر رأسي عن آخره. بعد خمس دقائق كنتُ واقفاً عارياً، أتأمل رأسي الحليقة في المرآة، شعري على الأرض، وورائي تسنيم تقف مبتسمة.

عند الحادية العشرة صباحاً عدتُ للتمدد على طاولة خاصة، لتأخذ في تدليك ظهري وأطرافي بعد أن أوقدت في الحمام شموعاً وعيداناً صغيرة تبعث روائح مهيّجة. فكرتُ أنّ والدتي نفسها ما كانت لتعتني بي هكذا. كنتُ مُسترخياً تماماً غائباً في نشوة خدرة. إلا أيري كان منتصباً كرمح، وقد قامت تسنيم بتغطيته بمنشفة بيضاء، حتى لا يُشتت تركيزها على تدليك أطرافي. نصف ساعة من التدليك اللذيذ والارتخاء بفعل روائح الزيوت الخاصة، كنت بعدها تحت الدشّ، وهي تفرك جسمي جيداً بالماء والصابون. ولدقيقتين، تركتْ الماء ينهمر عليّ بارداً مُنعشاً، ثم أوقفته وناولتني رداء حمام أبيض.

عُدنا لغرفة نومها الواسعة وعدتُ لارتداء مبذلي الأسود وخُفّي. لاحظتُ أننا لا نتحادث كثيراً على غير العادة. أشارت نحو مكتبتها الضخمة وقالت إن في إمكاني الانشغال بالمطالعة ريثما تطبخ لي الغداء.



لم أتمالك عن مداعبتها وهي تنصرف، وأنا أقول لها إنها لا تطبخ لي، بقدر ما تطبخني لها. فما كان منها إلا أن منحتني ابتسامتها اليابانية البريئة وانصرفت وكلها حياء.

لم أكن أرغب في المطالعة يومها. رحتُ أجول في أرجاء الغرفة الواسعة متوقفاً عند كل ركن. كل متر مربع كان عالماً بأسره من التفاصيل التي تحتاج وقتاً طويلاً للإلمام بها جميعاً. كان لها سرير واسع قصير عليه حشيّة غير سميكة، مُغطاة بلحاف حريري في زرقة الياقوت. حملتُ مقعداً خشبياً صغيراً ووضعته أمام حوض الأسماك الضخم وجلستْ. كان قاع الحوض مفروشاً بالحصوات الصغيرة والأصداف، وتعوم على سطحه السراخس. وجدتُ أنّي لا أعرف شيئاً عن نوعيّة الأسماك الموجودة، ولا أسمائها، ولفتت انتباهي سمكة غريبة برتقالية وبيضاء، برأس أشد غرابة، تسبح في لا مُبالاة. كانت الرأس ضخمة جداً وغير مُتناسقة، يتدلى منها جزء بارز كالورم، على شكل فصّي دماغ بشري مكشوف. خمنت حتماً أن روح آينشتاين حلّت بهذه السمكة بعد وفاته. تأملتُ كذلك الحلازين المتواجدة في كل ركن من الحوض تقريباً. كان واحد منها يلهو فوق أنبوب الأكسيجين، يسبح عند الفوهة لينقذف مع الفقاقيع إلى الأعلى، ثم يدع نفسه ينساب إلى الأسفل في دوخة لذيذة. لم أتفطن إلى قدوم تسنيم، التي وقفت خلفي وأخذت تسمّي لي الأسماك، وقد لاحظت حيرتي. بعد ذلك انصرفنا للمطبخ لتناول طعام الأفطار، وقد علمتُ أن السمكة ذات الرأس الغريبة تُسمى السّمكة رأس الأسد.

كان الفطور طبقاً مُتنوعاً من لفائف السُّوشي ولحم السمك الطازج المنقوع في صلصة السّوجا وغيرها من الصلصات المُبتكرة من أعشاب تُقوّي الباه. أكلت بلذة كبيرة ولما أنهيتُ الأكل جاءتني بزجاجة



«سَمبوكا» صبّت لي منها كأسين، حتى أتمكن من هضم الطّبق الدّسم. نهضتُ من الطاولة مفعماً بالقوة والامتلاء، كنتُ أشعر بقدرة رهيبة على الإنعاظ، وباستعداد لمضاجعة عشر حسناوات شبقات. بعد الفطور تركتني أنعم بقيلولة وانصرفت للتأمل. نمتُ ملء جفنيّ لساعة تقريباً، وصحوت بانتصاب عتيد. كنتُ ما أزال أتمطى في السّرير، لما سمعتُ حركة خفيفة، فالتفت. حسبتها تسنيم، لكنّي فوجئتُ بامرأة خمسينية تنظر إليّ في فضول، عرفتُ من ملامحها أنّها أمّها. نهضتُ لمصافحتها مُرتبكاً، وقد زاد ارتباكي وأيري بارز من وراء المبذل كوتد الخيمة. مدّت أم تسنيم يدها نحو يدي وقد خلتها للحظة تمتدّ نحو أيري، إلا أن صوت تسنيم انبعث بغتة حازماً كالسّيف، «أمّاه»، لتتراجع اليد الممدودة نحوي سريعاً، وتنسحب المرأة من الغرفة تحت أنظار ابنتها الحريصة، من دون أن تنبس بحرف.

«Lingam»، قالت تسنيم في استسرار، وهي تقترب منّي وتتأمّل أيري البارز تحت الرّداء، ثم أخذتني لشرب الشّاي في الحديقة، وهي آخر مرحلة قبل ساعة الحسم.

لم يكن شاياً ما قدّمته لي، أعني أنّه كان شاياً مخلوطاً بأعشاب أخرى، وبفطر نادر، قالت بابتسامة ماكرة، بعد أن أنهيتُ الكأس، بأنّه يثير الهلاوس والرؤى.

أذكر أن آخر ما شاهدته قبل أن أهوي في غيبوبة شبقية عميقة كان تسنيمَ وهي تدنو منّي بجسمها العظيم، مُرتدية مبذلاً أحمر حريريّاً، وقد عقصت شعرها وشدته بعيدان ملوّنة، ودهنت وجهها بمرهم أبيض، وبدى فمها كحلقة الشرج بفعل أحمر الشفاه البرّاق، قبل أن يزلق فيه أيري، وتبدأ الرؤى.



راح فمها يعمل تارة كفرج، وطوراً كشرج، ثم يتحوّل، ويتخذ من الثقوب هيأة الممكن، وغير الممكن، ويستوفي هيئة كل رطب ضيّق ذي شفط. كنتُ مثل جرم شارد وقع تحت تأثير جاذبية ثقب أسود، أحسّ أن كل كياني ينسحب ويجتمع ويتكاثف في أيري ثم ينقذف في فم تسنيم التي تلتهمني لهماً. وشعرتُ بروحي تغادرني، ووجدتني خفيفاً بلا روح، فارغاً، مُتخلصاً، مُرتاحاً.

وفي رؤياي كان الزمان يسيرا عكساً. رأيتُ الخلائق تنشأ من الخلائق، عوداً. رأيتُ الميّت يخرج من الحيّ، والبناءات تنهض من الأنقاض، والقديم يُطلّ من الحديث. وفي رؤياي، رأيتُ الطيّور ترتمي على الأرض ويسّاقط ريشها وتستحيل دوابّ تمشي على قوائم، ورأيتُ الدواب تفقد أطرافها وتمضي زحفاً حتى تنبت لها زعانف وحراشف، ورأيتها تَلْقى المُحيطات والأنهار، تستحيل حيتاناً وأسماكاً، ورأيتُ سكان الماء يذوبون في الماء، فتمّحي صورهم حتى لا يبقى منهم غير هُلاميات، تفكك وتفتت وتصير ذرّات وحدانية تذهب في الماء هباء. والماء رأيته يجف ويستحيل أبخرة تجمّد وترسّب، فتغدو صخراً منصهراً وحماماً تفيض بها فوهات الأرض. وفي رؤياي، رأيتُ المُنفصم تتصل عراه، رأيتُ الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً تجتمع في قبضة واحدة، ورأيتُ الأوساع تضيق، وكأن ما فُتّق من الأكوان لا محالة صائر إلى رتق، وصحوت.

لم أعرف كم لبثتُ في حالة من الشلل التّام بعد أن عدتُ لوعيي. كنتُ غير قادر على تحريك ولو رمش من رموشي، مرمياً على سرير تسنيم، شاخص العينين، أحدّق في السقف، لا أحسّ حتى بتردد أنفاسي. كنتُ حضوراً مُجرّداً، مُمتلئاً بالفراغ، وشيئاً فشيئاً أخذ يعود لي إحساسي بأطرافي، وجسمي، وصرتُ قادراً على تحريك أصابعي. أذكر



أنّي أول ما نهضتُ من السّرير وجدتُ تسنيم ملقاة عند قدميّ، غائبة عن الوعي، وقد انكشف ثدياها العظيمان وانحسر عنهما ثوبها الأحمر، وخيط من الدم تيبّس على خدّها بعد أن سال من أنفها.

بعد التجربة الأولى ظلت تسنيم فاقدة البصر لثلاثة أيام، قبل أن ترجع لها الرؤية، ويتوقف لسانها عن الهذيان بالانفجار العظيم. وأراكم الآن تَعُون جيّداً لماذا خضتُ التجربة في المرّة الأولى طوعاً، وترددتُ كثيراً قبل خوضها المرّة الثانية. لأني لم أكن أخشى على نفسي فقط، بل كنتُ أخشى عليها كذلك. ورغم ما حصل، فقد أصرّت على أن نزيف أنفها، وفقدها لبصرها، وحتى هذيانها الظرفي، كان كلّه عائداً لإحدى هجمات التصلّب اللّويحي الفجائية. لكنّي كنتُ واثقاً بأن الأمر على علاقة وثيقة بتجربتنا الخطرة، التي شارفنا فيها على الهلاك، خاصّة في المرّة الثانية، حين فقدت هي البصر نهائياً، وكدتُ أنا أن أصاب بالشلل. أعتقد أننا يومها قد اقتربنا من الحقيقة أكثر، كنا على وشك أن نعرف لم كان كل شيء بدل ألا يكون شيء. وإني إلى اليوم ما أزال مُصرّاً على أنّها هي التي دفعت الثمن أكثر مني، رغم أنّها، وحتى آخر لحظات قبل انتحارها، بقيت تصرّ على أن فقدها لبصرها كان بسبب المرض. وإن كان من شيء أندم عليه اليوم، فهو عدم قبولي خوض التجربة مرّة ثالثة. أذكر وقتها أنها لم تلحّ كثيراً، وفي المُقابل فإن رفضي كان قطعياً.

أشتاق تسنيم أحياناً وأبكيها كلما ذكرتها. أشتاق طبخها وابتسامتها العذبة، أشتاق لمّا كانت تُمسّد شعري وتتحسس وجهي بكفيها بعد أن ذهب بصرها، وأشتاق في ما أشتاق الشُرب معها. موتها كحياتها كان هادئاً ولطيفاً. لقد اختارت ألطف الميتات. أعدّت شايها الذي لا يعرف سرّه سواها، شاي الرُؤى، وأضافت له هذه المرّة من الفطر ما لا



يجعلها ترجع من رؤياها أبداً، ونامت. كلما ذكرتها إلا وتخيلتُ روحها قد بُعثت في جسم حلزون بحوض أسماكها. حلزون أصفر جميل، يلهو فوق أنبوب الأكسيجين، يسبح عند الفوهة لينقذف مع الفقاقيع إلى الأعلى، ثم يدع نفسه ينساب إلى الأسفل متأرجحاً في نعومة.




مكتبة
الفكر الجديد

كريستوف، لا تُحاول

أمطرت بغزارة ذلك العشي. الطقس كان بارداً جداً. لكننا لم نكن نشعر بأي بشيء من ذلك. كنا نشتعل من الداخل، نتوهج، فلم يمض بعدُ غير شهر واحد على اندلاع الثورة. كُنّا في منتصف شهر فيفري تقريباً، أي شهراً بعد هروب الدكتاتور.

السابعة ليلاً أو نحوها. قريباً يبدأ حظر التجوال. ذلك جديد علينا. الأمور تسارعت بإيقاع رهيب. مُعجَمنا تغيّر في ظرف وجيز. عيشنا تغيّر. يوميّنا تغيّر. كنّا نشهد التاريخ يتغيّر أمامنا ولا نملك غير الركض واللهاث للحاق بالأحداث. نشعر أحياناً أن الأمور تتجاوزنا، وأحياناً نُحيط بها، لكننا لم نكن نخشى شيئاً. نحن أسقطنا أعتى دكتاتورية بوليسية عبرت القرن العشرين إلى القرن الجديد. أسقطناها بأدوات القرن الجديد. كنّا ما نزال مشحونين، متوترين، متحفزين، نشوانين، سذّجاً متهورين، مستعدين للتظاهر مجدداً، لمواجهة فيالق البوليس، فلول النظام المنهار، وكل ما من شأنه أن يمنعنا من الحلم والفرح بإنجازنا العظيم. كنّا نتحدّث كثيراً، نحلم كثيراً، نأكل كثيراً، نسكر كثيراً، نضاجع كثيراً، نمزح كثيراً، نفكّر كثيراً، نرقص كثيراً، وننام قليلاً. أصابنا ضرب من المسّ البهيج. كنا دفقاً هدّاراً من الفرح والإمكانات الرائعة. كنّا نهذي.

هو منتصف شهر فيفري إذاً، كما سبق أن قلت. إلياس، محمد



علي، ليلى صديقة إلياس، ماكسيم صديق ليلى الفرنسي، زياد، وأنا، نجلس السّتة في مقهى بقلب العاصمة، غير عابئين بالبرد، أو بحضر التجوال الوشيك. نكاد نتقافز على المقاعد من الإثارة. كنّا فرَحاً مُعْدياً. تحدثنا عن عودة المعارضين من الخارج. شتمناهم جميعاً. محمد علي كان يهذي بنصْب المشانق على الأشجار في شارع بورقيبة الكبير. كان راديكالياً، يقول إن الثورة لن تكتمل إلاّ بشنق رموز النظام المُباد. زياد كان يقترحُ احتلال مقارّ الحزب الحاكم التي أُحرِق معظمها. فضاءات كثيرة تحررت. الدكتاتورية المنهارة خلّفت مساحات شاغرة يجب استغلالها. كنّا نرى الأفق لأول مرّة. الثورة باغتتنا، وباغتت نفسها بنا.

التحق بنا خمسة أشخاص آخرين قبل أن نغادر المقهى جميعنا، متوجهين إلى بيتنا ـ أنا وإليأس ـ في ساحة «الباساج» القريبة. إلياس كان رفيق دربي وشريكي في البيت. الخمسة الذين انظموا إلينا في المقهى كانوا أصدقاء محمد علي. أحدهم يُدعى أحمد، شاب نحيل بشعر أجعد غزير ولحية سائبة: عضو شابّ في حزب العمّال الشيوعي المحظور قبل الثورة. كان رفقة صديقته، فتاة نحيفة سمراء، وأختها، فتاة نحيفة سمراء كذلك. كان صحبة الثلاثة شابّ وشابة تشي ملامحهما بأنهما أجنبيان، قدّمهما لنا أحمد على أنّهما صديقان فرنسيان، تعرّف عليهما صدفة، وعرّفهما: كريستوف، صحافي من جريدة «ليبيراتيون»، وصديقته هيلين، طالبة آداب، قال إنّهما جاءا ليُعدّا تقريراً صحافياً عن الثورة «وعمّا حصل في تونس». أصبحنا أحد عشر نفراً تقريباً يجلسون حول طاولة صغيرة يتحدثون حول فنّ المرحلة، وأدب المرحلة. إلياس، زياد، ومحمد علي، كانوا طلبة فنون جميلة، يضعون تلك اللحظات النّواة الأولى لما سيُسمّى لاحقاً «حركة أهل الكهف» الفنّية. قرّرت أنا وإلياس دعوة الجميع للشرب ومواصلة الحديث في بيتنا. دفعنا الحساب



وقمنا، المقهى كان بصدد الإغلاق. أمرٌ تافهٌ حصل قبل مغادرتنا، لم أعره أهمّية إلا لاحقاً. لمّا جاء النادل بتذكرة الحساب التي تخص الخمسة الوافدين، ووضعها على الطاولة، التقطّها أنا بسرعة، قبل أن تطيّرها الريح القوية ـ فقد كنا نجلس في تيراس نصف مكشوف ـ ودسستها تحت منفضة السجائر الممتلئة كحفنة رصاص. كريستوف، الفرنسي، فسّر حركتي خطأً، إذ مال على صديقته مُبتسماً، ليقول لها فرِحاً، إني سأدفع عنهم كما توقّع. لم أشأ أن أخيّب ظنّ ضيفي، الذي توسّم فيّ الكرم، حتى قبل أن أبادله كلمة واحدة. أصررت على دفع حسابهم جميعاً، مّما أحرج أحمد، الصّديق الشيوعي. ثم غادرنا المقهى واشترينا بيتزا ودجاجاً محمّراً لعشائنا من مطعم كان في طريقنا، وأسرعنا إلى البيت على الأقدام.

***

قعقع الصفيح وهو يُفتح لتفور الرغوة الفضّية والشراب الأشقر يتدفق في حناجرنا ليؤجج الشموس المُستيقظة داخلنا. شربنا بإيقاع مجنون. الحديث في البيت تواصل بطريقة محمومة حول فنّ المرحلة. كانت لنا صالة صغيرة بسقف عال وسريرين خشبيين، أضفنا لهما حشايا وضعناها على الأرض، ومقعدين جاء بهما إلياس من غرفته ليتسع المجلس للجميع. لاحظت ونحن نتعشى ونتعرّف على بعضنا بعضاً، أن كريستوف، صديق أحمد، لم يكن يُطيق ماكسيم، صديق ليلى. أحسست أن كريستوف ودّ لو كان الفرنسي الوحيد في الجلسة. أمّا ماكسيم فكان شاباً لطيفاً وذكياً، ينتمي إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، وسرعان ما انغمس مع أحمد، الشيوعي الثاني بالبيت، في محادثة عميقة. انقسمنا بعد العشاء إلى حلقات صغيرة. ليلى صديقة إلياس



مضت تتحدث مع صديقة أحمد وأختها. أنا وإلياس وزياد كنا في نفس الحلقة. بينما سحب كريستوف مفكرة وجلس رفقة هيلين الصّهباء، إلى محمد علي، يسألانه أسئلة عن الثورة.

إلياس وزياد وأنا كنا واقفين نقهقه عالياً، ونشرب بسرعة. الآخرون وجدوا صعوبة في اللحاق بنا. خاصة الفرنسيين الثلاثة. إيقاعنا كان عالياً. كنا نتحرك كالدبابير.

ألقى نحونا محمد علي بسؤال سأله له كريستوف، الذي يُصرّ رغم مناخ المرح على أن يبدو جدّياً ومحترفاً، وهو يُمسك مفكّرته وقلمه.

«يسألكم ماذا تغيّر منذ الثورة يا رفاق؟» قال محمد علي، محاولاً التخلص من كريستوف الذي خنقه بالأسئلة.

نظرنا نحوهما، ثم انفجرنا الثلاثة ضاحكين في نفس الوقت. ورحنا نسأل بعضنا بعضاً متناظرين في ما بيننا: «ماذا تغيّر؟! ماذا تغيّر؟! ماذا تغيّر؟!».

«الجعّة تغيّرت»، قال إلياس رافعاً كأسه لنقرع نخباً حماسياً.

«magnifique»، قال كريستوف وتخلى عن محمد علي وجاء نحونا ليقرع أنخابنا منضمّاً إلينا. تفرّس في ثلاثتنا وراح يقيس بذكائه الفرنسي أيّنا أهم، ثم اختارني ليبادرني بالأسئلة. كريستوف كان مخطئاً في حساباته. زياد كان أهمّنا. زياد ذو الشعر الفاحم الطويل، والعينين الخضراوين الذهبيتين، كان أصغرنا وأوسمنا، وأكثرنا ابتكاراً ونشاطاً. لكن كريستوف اختارني ليحاصرني بأسئلته التي تُذهِب السّكر.

لم أكن أرغب في أن يستجوبني. كان روحاً ثقيلاً، فاتح الشعر والعينين، بوجه باهت لا ينطوي على أدنى سرّ. رحت أجيبه على أسئلته بتهكم، محاولاً صرفه، عندما سألني: «لماذا قمتم بالثورة؟».



«الضجّر»، قلت بعد برهة من التفكير، وأنا أقصده بالإجابة ليدعني وشأني.

«آه، intéressant»، قال وخربشِ باهتمام شيئاً مّا على مفكّرته. قبل أن يسألني من جديد بأسلوب المحققين: «ماذا تعني بالضّجر؟».

أحسست أنّه لم يفهم أني أتضجّر منه، فرحتُ أنحطّ باللغة وأفحش حتى يدعني وشأني وقد بدأت أشم رائحة استشراق مّا.

«أعني أن المرء يتوقف في لحظة مّا من حياته، من فرط الضّجر، عن هرش خصيتيه، ثم يبدأ بالبحث عن معنى آخر لهما، ويُحاول أن يفعل بهما شيئاً مّا»، قلتُ بأسلوب يوحي بالتفكير العميق، وقد انفجر الجمعُ ضاحكين وكانوا يُتابعون حوارنا.

«هذا إن كانت له خصيتان أصلاً»، قال إلياس بنفس الروح المتهكمة، جالساً على الحشيّة فوق الأرض، ضامّاً صديقته ليلى إليه.

«ساخر، لكنّه مثير»، علّق كريستوف، مخربشاً شيئاً مّا على مفكرته. فواصلت وقد بدأ الأمر يروقني: «ما حصل يا كريستوف، هو أن الناس تقدّموا فُجاءة في فهمهم لأيورهم، وفروجهم، وبطونهم. ما حصل، هو أن الناس هنا استطاعوا الإصغاء إلى أعضائهم. فعرفوا أنها غاضبة. غاضبة جداً يا كريستوف»، قلت مزمجراً، وأنا أقصده مرّة أخرى.

كريستوف كان يُدوّن. فأكملت بأسلوب مسرحي: «هل سبق وأن قابلت فرْجاً غاضباً يا كريستوف؟ أو حتى بظراً غاضباً؟ هل تعرفين ما معنى أن يكون الأيرُ غاضباً يا هيلين؟» قلت لأزج بصديقته المفتونة بحوارنا داخل المغمغة.

«لا أتمنى لكِ أن تُقابلي زُبّاً غاضباً يا هيلين»، أضفتُ لينفجر أصدقائي ضاحكين من جديد.



أحسست أن كريستوف لن يتركني بعد الآن. فطرتُ إلى غرفتي لآتي بحاسوبي النقال، لكنه لحقني هناك. كنت أرغب في الاستماع لبعض الموسيقى، الجو بدأ يفتر.

«هل أستطيع أن أتفحص مكتبتك؟» سألني ناظراً نحو الرفوف.

«أجل»، قلتُ وأنا أنظر إليه يقعدُ على الأرض فوق البساط الرمادي ويبدأ في تفحص الكتب. اقتربت منه. كان يدوّن على مفكرته أسماء الكُتّاب الذين كانوا في مكتبتي.

«هل تعتقد أن هؤلاء أهمّ من هنري ميللر، أو بوكفسيكي، أو كيرواك؟ أو حتى دوستويفسكي؟» قلت شاعراً بالقرف، وأنا أرى أنّه لا يدوّن إلا أسماء الفلاسفة والروائيين الفرنسيين.

«هل تعرف سليم بركات يا كريستوف؟» أضفتُ وسحبت كتاباً لسليم بركات، ورحتُ أقرأ عليه بالعربية وهو لا يفهم شيئاً، حتى أبحرت مع النص وكدت أن أنسى وجوده تماماً بالغرفة.

أرادَ أن أحدّثه عن سليم بركات، فنصحته بأن يدخل على غوغل ويُعفيني من ذلك. حملت الحاسوب وهممت بالخروج، عندما رأيته يمدّ يده نحو مشجب الثياب: «هذا معطف جميل وباهظ الثمن». قال ممرّراً يده على صوفه الإسكتلاندي.

شكرته على مجاملته، فقال ونحن نغادر الغرفة والحاسوب في يدي: «ماكينتوش، أليس كذلك؟».

«أجل»، قلتُ وأنا أقسم أنّه كان ينتظر أن يجدنا نركب جمالاً وندهش لاختراع اسمه الولاّعة.

كريستوف توجّه نحو صديقته هيلين مباشرة وراح يُحدّثها عن غرفتي، واصفاً إياها بالنظيفة والمرتبة، وأخبرها كذلك عن بوستير



«لإيغون شيل»، وصورة «لدولوز وغواطّاري»، كانا معلقين على الجدار. هيلين استمعت إليه مبتسمة، ناظرة نحوي بعينيها الزرقاوين. بادلتها الاتسامة وأنا أحزر إن كان لون شعر عانتها كلون شعرها الأصهب.

عدتُ للشرب وقد تركت الحاسوب لليلى صديقة إلياس لتختار الموسيقى. كنتُ أثق في ذوقها وقد فتحتْ موقع jazz radio واختارت لنا أن نسمع jazz manouche، فازداد إيقاع الشرب، والمرح، وتخلصت أخيراً من كريستوف.

***

كريستوف لم يأت ليُعدّ تقريراً صحافياً بل جاء يتلصص على ثورتنا. كريستوف جاء في رحلة سافاري، زيارة إتنوغرافية كما اعتاد أجداده الفرنسيون. لكن كريستوف، لم يكن يعرف أنه سيسقط في كوكب القرود، وسط قيامة القرود. ثم إننا لم نكن قروداً. وحتى إن كُنا كذلك في عين كريستوف، فإن إبط قردة جرباء كان أشد جمالاً ومعنى من وجهه الباهت البغيض.

الآن أفهم جيداً ما حصل مع تذكرة الحساب في المقهى. كريستوف سمع بالتأكيد عن طيبتنا، وكرمنا، وحسن ضيافتنا، فقرر أن يضحك على ذقوننا. كريستوف يحسبُ كرمنا سذاجة، ففكّر أن يستغلنا. كان يدخن منذ مجيئه من علبة تبغ إلياس، ثم علبة تبغ زياد، ثم علبة تبغ محمد علي. كريستوف دخّن من عُلب تبغ الجميع، ولا أحد كان يردّ له طلباً. ولما انتهى تبغ الرفاق، سحب كريستوف علبة تبغه الخاصة، وراح يلف حشيشها في ورق خاص ويدخنه، ولم يتكرّم على أحد بسيجارة. كما أن أحداً لم يجرأ أن يطلب منه شيئاً. وللمرة الألف في حياتي، حمدت الله على أني لا أدخن. نسيت أن أقول لكم إن كريستوف عندما



كنا نتعشى، أنهك ذهنه تخطيطاً للاستيلاء على قطعة بيتزا بقيت في صحن ليلى. كان ينظر إلى قطعة البيتزا فوق الطاولة ويخشى أن يختطفها منه أحد، أو أن يُرفع الصحن. ثم نظر إلى ليلى وقال لها: «ألا تُنهين البيتزا؟» ردت عليه بأنها اكتفت، وأن في إمكانه أكلها لو يرغب. ليلى صديقة إلياس، المغربية، المقيمة بفرنسا، تعرف الفرنسيين جيداً، وكانت من اللباقة بحيث اختصرت الطريق أمام كريستوف، حتى لا يحترق ذهنه من التفكير في كيفية الاستيلاء على قطعة البيتزا الباردة. باختصار، يمكن أن أقول لكم، واصفاً الموقف، بأن كريستوف، على حدّ تعبير هنري ميللر، كان *شيطاناً في الجنة*.

***

من عادتي أنا وإلياس عندما يُتعتعنا السّكر، أن نستمع إلى أغنيات جاك بريل، ونغني معه. كريستوف غنّى معنا أغنيتين كاملتين، ثم واحدة غناها بشكل مهشّم، قبل أن «نهرب به». أنا وإلياس نحفظ بْريل عن ظهر قلب. جُنّ كريستوف، أراد أن نضع أغنيات يعرفها حتى يُجارينا، ويُغنّي هو الآخر. أراد أن يصدّع رؤوسنا بأغنية لفرنسيس كابريل، الثقيل. لكننا صحنا: «لا»، جميعاً. حتى هيلين صاحت معنا. فرنسيس كابريل كان نموذجاً للرّوح الفرنسي المترهل والثقيل. اقترحنا عليه أن نسمع أغنيات لليو فيرّي، لكن المسكين لم يكن يحفظ له غير شذرات قليلة.

«ماذا نعمل لربّك يا كريستوف؟» قلتُ وقد بدأ يُغضبني. «ستستمع إلى «المِزود» وتغلق ربّ فمك الفرنسي ـ الذي يُشبه الشّرْج المُنفرج في أول إطلالة للبراز»، تابعتُ بالعربية، لينفجر أصدقائي قهقهة.

كريستوف طلب ترجمة فورية، لكن ليلى، قالت متأسفة، أن ما



قلتُه، كان شعراً فصيحاً غير قابل للترجمة. فانفجرنا ضاحكين مرّة أخرى حتى اغتاظ كريستوف، وغيّر الموضوع بسرعة.

ماكسيم، الفرنسي الآخر في الجلسة، زميل ليلى في sciences po، شعر بخجل شديد من سلوك مواطنه، ولم يتبادل معه أية كلمة منذ أول السهرة. لقد علمت أنه جاء هو الآخر ليتعلّم منّا تقنيات الثورة، ويُتابعها عن قرب، ليستفيد من خبرتنا وينقلها إلى رفاقه في الحزب الشيوعي الفرنسي. هذا ما عرفته منه من خلال تلك الكلمات القليلة التي تبادلتها معه. كان شاباً صموتاً ومثقفاً، على عكس كريستوف.

كريستوف كان يتعامل معنا بتملّك وغيرة. كنتُ أقول لمواطنه ماكسيم، إننا نشّطنا مُصطلح الثورة، وأرجعناه للخدمة، وقد أضفينا عليه معنى جديداً، عبر ما ابتكرنا من تقنيات جديدة في التضليل، والالتفاف، وسرعة تمرير الخبر، والمباغتة... عندما اندس بيننا كريستوف بفظاظة، ليشذ بالحديث مغيراً الموضوع، إلى أن يأس ماكسيم تماماً، وعاد للحديث مع أحمد، الرفيق الشيوعي.

تخلصت منه مرّة أخرى بصعوبة ورحت إلى غرفتي. ارتديت بدلة العمل البيضاء، عليها رمز مستشفى الرازي، حيث أعمل، وعدت إليهم. أصدقائي كانوا يعرفون أني لا ألبس البلوزة أبداً أثناء العمل. ويعرفون كذلك أني لا أرتديها إلا في البيت حين يُتعتعني السّكر. دهش كريستوف وهو يراني أعود من غرفتي بالبلوزة البيضاء خاصّة لمّا عرف أنني نفسانيّ وأعمل في مستشفى للأمراض النفسية. أحسست أنه صار مغرماً بي. وأنا، في تلك اللحظات، كنتُ مغرماً بهيلين.

كريستوف كان يجلس على الأرض فوق الحشايا، على يمينه صديقة أحمد، الفتاة النحيفة السمراء، وعلى يساره أختها، فتاة نحيفة سمراء



كذلك. ذكرتني جلسته بلوحات المستشرقين. كان يجلس في خُيلاء، بين الفتاتين السمراوين، فاتحاً ذراعيه، مطلقاً ابتسامة عريضة، يُسراه تطبق على الجعّة، ويمناه تقبض على سيجارة. كريستوف نسي هيلين في غمرة استشراقه وهذيانه الاكزوتيكي، وأنا، في المقابل، لم أنس هيلين الجميلة. كُنت أتحدث إليها وقد علمت أنها تُعدّ دكتوراه حول الأدب الروسي. راقني حديثها كثيراً وتركتها تحدثني بكل حماس عن الأدباء الرُوس. لم أقاطعها البتّة وأنا أتابع لسانها الأحمر الشهي يغزل الكلام وينثره في لطف.

قال زياد إنّه سيغادر البيت. الساعة تجاوزت الثالثة فجراً بقليل وحظر التجوال لم ينته بعد. كان ضجِراً. صحيح أنّه لا يُجيد الفرنسية جيّداً، مثل البقيّة، لكنه كان يتحدث الإيطالية بطلاقة. وعلى العموم، فهو لم يخسر شيئاً من عدم إتقانه الفرنسية، ولم يُضيّع شيئاً من السهرة. كل ما حصل هو أنّه تجنّب الاستماع لانتهازية كريستوف وطوبويّة ماكسيم. «أحسست به»، حين أراد الخروج. أحسست باختناقه. كان شخصاً خلّاقاً، جمّ النشاط، لا يطيق المكوث طويلاً في نفس المكان. محمد علي تحمّس كذلك لفكرة الخروج والمغامرة، خصوصاً أن البيرّة انتهت تقريباً، والسجائر نفدت منذ وقت، إلا سجائر كريستوف، الذي كان يفتل خراءه ويُدخنه لوحده. راح زياد يتفقد ألوانه ومعدات الرسم والطلاء داخل حقيبة ظهره الضخمة، وقال إنه يُفكّر في التجوال عبر الشوارع الخالية لوضع بعض الرسوم الجدارية وكتابة بعض الشعارات على الحيطان. ذكّرتُه ناظراً لساعتي اليدوية بأنه بقيت ساعتان على الأقل قبل نهاية حظر التجوال. فقال إننا لم نقم بثورة لنبقى في البيت أو لنخشى حظر التجوال. هذا هو زياد، روح الثورة. إنّه هو الثورة. كم كان كرستوف مخطئً حين ظنّ أني أهم فرد في المجموعة.



ماكسيم تحمّس كذلك لفكرة الخروج. أحمد، صديقته، وأختها، قالوا إنهم سيغادرون كذلك. فالصّالون كان ضيّقاً ولا يتسع للجميع ليناموا هناك. أقنع أحمد صديقه كريستوف ـ الذي اقتنع من دون عناء ـ بالنوم عندنا، لأن الخروج الآن أمر ينطوي على مخاطرة، على أمل أن يلتقيه غداً صباحاً، ليُعرّفه على مجموعة أخرى من الشبّان التونسيين ليحاورهم حول الثورة ويتمّ إعداد تقريره.

غادروا: محمد علي، أحمد، صديقته السمراء، أختها، ماكسيم، وعلى رأسهم زياد، يحمل الثورة على ظهره في حقيبته الضخمة الثقيلة. إلياس انصرف إلى غرفته مع ليلى وأغلقا الباب، لأبقى أنا وكريستوف وهيلين في الصّالة.

إمّا أنا وإما أنت ميتاً الليلة يا كريستوف. لن يفكك مني قنصُل فرنسا ولا حتى الأمين العام للأمم المتحدة. رحتُ إلى غرفتي وعدتُ بزجاجة خمر معتقة من سنة ٢٠٠١. كانت هديّة من والدي الذي وهبني إياها ليلة ١٤ جانفي، ليلة هروب الدكتاتور، لأرطّب حلقي وأستعيد صوتي الذي بحّ من فرط الهتاف والغاز أمام مبنى وزارة الداخلية؛ آخر قلاع النظام المُباد، في شارع بورقيبة الكبير. قارورة الـMagon الأحمر، كانت واحدة من أجود أنواع الخمور التونسية.

ستشرب «الماغون» الليلة يا كريستو، قلتُ له وأنا أعود كذلك بكأسيْ كريستال فخمين. كان عندي كأسان فقط. انتظرت من كريستوف أن يترك واحداً لهيلين، والآخر لي بالطبع، إلا أنّه لم يكن شهماً. نصّفت له الكأس فشرب منها واحتفظ بها. أخذتُ جرعة من كأسي ثم وهبتها لهيلين، وبقينا نشرب معاً في نفس الكأس.

عاد كريستوف يسألني أسئلة، مخربشاً بخط رديء، على مفكّرته،



أشياء لا تفهم. ولمّا علم بأنّي أحاول أن أصير كاتباً أصرّ أن أُطلعه على بعض نصوصي. وأمام إلحاحه، لم أملك غير الموافقة، ملخصاً له بسرعة بعض ما كتبت. لم يكن يعنيني إن كان كريستوف مُنبهراً فعلاً بما قلت أم أنّه تظاهر بذلك، إلا أنّه راح يصبّ لنفسه من الزجاجة من دون استئذان، حتى إنّه صار كائناً لافِقرياً من فرط السّكر، يترنح ويتماسك بصعوبة. هيلين كذلك سكرت وصارت حمراء كشعلة من شبق. أنا أيضاً كنت سكران، بهيلين خاصّة، مْن دون أن تكون لي لهفة كريستوف على الخمر.

«هل تكتبُ بالفرنسيّة؟».

كان سؤال كريستوف مثل ريح قطبية هبّت عليّ وطارت بنصف الكحول الذي في عروقي. لم أعرف ماذا أقول، رحتُ أصرخ بصوت جمَع بين القهقهة والاختناق: «إلياس! إلياس! إلياس!».

سمعت وقع أقدام إلياس، المذعورة، وهو يهبّ من سرير غرفته نحو الصالون، طلعا علينا من الغرفة عارياً، كالقلم. «ما لربّك تصرخ بهذا الشكل؟» قال وهو يرى ألا شيء يستدعي الصراخ.

قلت له بصوت مختنق من فرط الضحك، إن كريستوف، لمّا علِم بأني أحاول أن أكون كاتباً، سألني إن كنت أكتب باللغة الفرنسيّة.

قهقه إلياس عالياً، وقد ضاقت عيناه ورأسه تنقشع إلى السقف، قبل أن يُتمتم شيئاً مّا بالعربية، ناظراً إلى كريستوف في ازدراء، ثم صفق باب غرفته ليُسمَع صوت دوران المفتاح في القفل. هيلين، وكريستوف أيضاً، نسيا السؤال تماماً، وهما يتابعان في اندهاش انتصاب إلياس.

«أير صديقك مختون»، قال كريستوف. «وضخم»، أضافت هيلين، وشفتاها تقطران شهوة وقد تلونتا بلون «الماغون» القرمزي.



قهقهتُ للملاحظة، مذكراً كريستوف وهيلين، بأن ما شهداه قبل قليل، كان واحداً من تلك الأيور الغاضبة التي قامت بالثورة.

جرى الحديث عن الأيور وقد انتهت الزجاجة. فأسرعت إلى غرفتي وأتيت بأخرى من ترسانتي المخزنة تحت السرير.

استبدّ بنا السكر. جاوزنا الثمالة بأميال. كرستوف أصرّ أن الأير المُحتفظ بقُلفته، أفضل بكثير من الأير المختون. دافعت عن أيري، وأيور المُسلمين.

«لا يا ربّك»، قلتُ لكريستوف الذي كان يشرب كخنزير. «الأير المختون أير مُثقف، أير بلا عُقد؛ هو وضوح كلّه. ليس للأير المختون ما يُخفيه يا كريستو».

قال هو إن الأير المختون أيرٌ ناقص، مقارنة بالأير المحتفظ بقلفته.

ابن القحبة أغضبني، وقد كنتُ متفطّناً تماماً لما يريدُ أن يمارسه عليّ من خصاء.

«أيوركم المتغضّنة، أيور لم تتطور»، قلتُ له. «أيوركم قرودٌ لم تفقد وبرها بعد».

قال كريستوف، وقد بدأ يكشف عن سريرته، إن من الممكن أن تكون أيورنا قد تطوّرت، لكنه يشك في أن يكون الأمر كذلك مع عقولنا.

ابن القحبة كان يضربُ تحت الحزام، فقررت أن أريه ماذا تفعل عقولنا. قلتُ له بمكر إن بإمكاننا رفع الخلاف إلى هيلين لتحسم في الأمر. ومن دون أن أنتظر موافقة، سحبت يدي من جيبي وخلعت سروالي وثوبي الداخلي، وكشفته أمام هيلين بعد أن دعكته خفية عنهما. شهقت الصهباء لتفيض زرقة عينيها، وهي ترى أيري منتصباً كبرج



بيزا، بميل خلقي نحو اليسار. «انظري هذا الأيرَ الأعسر الهُمام، أنظري إلى هذه الندبة من أثر الختان. أنظري الزخرُف يا هيلين. هذا نقش البرق على الحجر. أيري لاقط صواعق. انظري وأبْدي رأيكِ».

كريستوف بقي مشدوها ينظر إلى أيري المشهور كخنجر يمنيّ، قبل أن يخلع سرواله ويسحب أيره هو الآخر في سرعة. أيره كان مُرتخياً، متغضّناً، مثل جُبن فرنسي فاقد الصلاحية.

راح يفركه مستمنياً حتى انتصب.

أمسكت هيلين أير كريستوف بيُمناها، وأيري بيُسراها، وراحت تتأملهما محتارة. كنّا مثل مُراهقين أحمقين، نرجسيين، ينتظران الإعلان عن نتيجة مسابقة، وكلاهما يُمنّي نفسه بهزيمة الآخر.

اغتاظ كريستوف وإن حاول أن يكتم ذلك وهو يرى هيلين السكرانة تُمسك عضوي وتقول إن الأير المختون مصقول، ومنحوت كالعمارة. لتضيف مُلخصة في عبارة: «الأير المختون يقينٌ كلّه».

«أما الأير غير المختون، فيُمكن أن نلخص الأمر ونقول عنه إنه غموضٌ كلّه»، أردفت.

«الخلاف لم يُحسم»، صاح كريستوف، وأنا أستطيب لمس هيلين لأيري، مُتظاهراً بأن ذلك لا يعنيني.

«بل حُسم»، هتفتُ في نصر. «لقد تحدثت هيلين عن أيري أكثر مما تحدثت عن أيرك. يبدو أن أيري أسال لعابها أكثر»، قلتُ وأنا أنسى أحياناً الحديث بالفرنسية وأتحدث بالعربية مُفحشاً، لأن الشتائم الفرنسية كانت باهتة وينقصها الكثير من البهارات.

«أسمعكم تكررون Zeubi Zeubi، منذ بداية السّهرة، ماذا تعني هذه الكلمة؟ أهو اسم إلهكم؟» قال كريستوف مستفسراً.



«إليـاس!!! إليـاس!!!» صرخت مقهقهاً أنادي صديقي، ناظراً لكريستوف في ذهول. إلياس لم يأت هذه المرّة، وأيري ازداد انتصاباً لفرط الضحك، وهيلين تتشبث به متخلية عن أير كريستوف.

«أجل يا كريستو»، قلت وأنا أكاد أختنق قهقهة. «الزّب هو إلهنا. الزّب هو الرّب، مرادف مترادفات إلهنا. هذا أفضل ما قلته يا عظيم. هذا يغفر لك كل حماقاتك منذ بداية السهرة». كُنا واقفين أنا وكريستوف، وهيلين جالسة على السرير تتشبث بأيري كالأمل، تتأمل وجهانا، وتتابع سجالنا في شغف.

رُحت أشرح لكريستوف، وقد جلسنا على السرير، وهيلين بيننا، بعد أن أكملت خلع سروالي، العلاقة الوثيقة بين الزّب والرّب، وتواتر استعمال هاتين الكلمتين المتجانستين في دارجتنا التونسية، وكريستوف يخربش على مفكرته في جذل، شاعراً أنه وقع على كشف أنتروبولوجي عظيم. راودني انطباع بأني صرتُ دُمية إتنوغرافية، وهو يسألني إن كنتُ قمتُ ببحث سيكولوجي في الموضوع، فقلتُ له بأني أقوم بدل ذلك ببحث حول البورنوغرافيا، مُواصلاً دعك أيري حتى يبقى مُنتصباً.

أحـسـسـت أن كـريـسـتـوف ذهـل مـرة ثـانـيـة، فـرُحـتُ أحـدثـه عـن البورنوغرافيا، مستعرضاً كل معارفي حول الموضوع، موزعاً بصري بينه وبين هيلين، المُعدّلة على انتصابي، وهو يستمع إليّ منبهراً، من دون أن يعرف بأني أفعل كل ذلك لأستدرج هيلين إلى السّرير.

كريستوف لا يعرف شيئاً إطلاقاً عن الـ post porn modernism، كما أنه كاد يُصاب بسكتة دماغية حين سمع مني لأول مرة مُصطلح porn studies. كريستوف سلّم تماماً، ألقى كل أسلحته، وهو يخربش على مفكرته كالمجنون. صار يعبُدني. كنتُ أقذف في وجهه بقضيب معارفي،



وكان يتلقى الشيء المُزبد على وجهه مثل ممثلة بورنوغرافية مبتدئة، لم تتقن بعد كيفية التموقع أمام عين الكاميرا.

لكن الفيلم البورنوغرافي لم يبدأ بعد.

توقفتُ عن الكلام تشويقاً، شارباً جرعة من كأسي، قبل أن أناوله لهيلين، التي التصقت بجنبي، تكاد تقفز فوق حجري للجلوس على أيري. عدتُ أحدّثه عن البورنوغرافيا، وتصانيفها، وصِراع مُناضلاتها ومُناضليها لأجل أن تُصبح فنّاً مُعترفاً به. ثم حدثته عن Ovidie، مواطنته الفرنسية؛ أذكى فروج فرنسا وأكثرها تعجرفاً، التي قال إنّه سمع عنها، مع أني متأكد أنه يكذب. عند تلك اللحظة أمسكتُ هيلين من شعرها وأنزلت رأسها ببطء نحو أيري. هيلين قصدته رأساً، وكأنها تعرف المسار إليه حقّ المعرفة. تفاجأ كريستوف بالحركة، وأنا أفلِتُ شعر هيلين التي بقيت عالقة به، تمصّه في نهم. احتقن وجهه وصار كحبة طماطم منفذخة، وهو يرى صديقته تمصّني طوعاً.

«هذا من أدب الضيافة عندنا»، قلتُ له مربّتا على كتفه. «إن كُنت تحبها فلا تحرمها منه أرجوك. لا تنسَ أن أيري شارك في الثورة يا كريستو».

كريستوف أخذ يبكي. لم أتوقع ذلك منه. كُنت أحسبه أكثر صلابة. أفلتت المفكرة من يده لتهوي على الأرض وهو يتكئ إلى الخلف سكران تماماً، مُنهاراً، مردداً في خفوت، ودموعه تجري: «لقد كُنت أحبها. أحبّها».

«هيّا يا كريستو، يا عظيم، أعلم أنّك ما زلتَ تُحبّها»، قلتُ مواسياً، وهيلين تدور وتنزل لتركع بين قدميّ، وتأخذ في مصّ لاهث.

«ومتأكد أيضاً من أنها تحُبّك»، تابعتُ. «لكنك جئت هنا لتعيش



الثورة يا كريستو. هذا القليل منها يا رجل. لا ترتكس. ثم إنّه كانت لك فرصة لتخرج وتتنشق هواء الثورة مع الآخرين». واصلتُ وهو يزداد نواحاً: «دعها تختبر أيراً غاضباً. هيلين امرأة ناضجة، تُعدّ دكتوراه حول الأدب الروسي، وتعرف ماذا تفعل». قلتُ وأخذتُ يد هيلين ووضعتها على أيره هو الآخر، فراحت تدعكه.

«انظرْ، ها قد حُلّت المشكلة يا كرستو. هيلين تُحبّنا نحن الاثنين. قلبها كبير، يتّسع لكلينا»، قلتُ قاصداً كسّها.

«سنمرح نحن الثلاثة»، أضفتُ وأنا آخذهما إلى السرير الواسع داخل غرفتي.

***

راح كريستوف يقبل ويدبر في هيلين من الخلف، بينما هي على أربع، تمصّ أيري من الجهة الأخرى. كنتُ أحياناً أغلق فتحتي منخريها بسبابتي وإبهامي، فيضطرها ذلك إلى شفط أيري مع ريقها في شهيق عنيف، رافعة نحوي نظرة معاتبة، فأمنحها ابتسامة مشجعة مُفلتاً أنفها. كريستوف كان مُحتقن الوجه كفلفل أحمر، يمسك خاصرتيها، يرفس فيها من الخلف في غيظ وانتقام. واصلتُ استعراض معارفي عن البورنوغرافيا مداعباً شعر هيلين الأصهب الجميل من حين لآخر، كاشفاً وجهها المتعرّق، متأملاً زرقة عينيها الجاحظتين. رحت أرهز في حنجرتها عميقاً وأنا أسمع لهاثها وريقها يسيل مع ذقنها وينحدر على رقبتها وبين نهديها.

«هذا تناكح الثقافات يا كريستو»، قلت له. «هذا حجر الأساس في مشروع ساركوزي المتوسّطي».

كريستو، لم يكن يسمعني. كان يوشك على بلوغ الذروة؛ انقشعت



رأسه إلى الخلف وانحسرت شفتاه لتتكشف لثته، وهو يتأوّه منتشياً كبغل شمّ بوله واستطابه.

«أنت سريع القذف يا كريستو»، قلت له وهو يهوي صريعاً على السرير، تاركاً خلفيّة هيلين للريح.

تنحيت عن فم هيلين وباشرتها من الخلف. أقحمته عميقاً في فرجها المنكشف في فحش خلّاب. عانقتْ المخدة، وراحت تعض على حواشيها مغمِضة عينيها، مسنِدة جانب وجهها على اللحاف الأسود، لتهبني كل خلفيتها، وظهرها مبسوط أمامي تسري فيه هزّة النّيك وتنحدر عليه حبات العرق كانهيار ثلجي.

«آآآآآآآآآآآآآه»، صرخت هيلين وأنا أخبط فيها خبطاً، لأمرر يدي عبر حوضها وآخذ في دعك بظرها. «قولي له أيّنا أحسنُ عملاً. قولي له الآن وقد تذوقتِ رهز الاثنين».

«آآآآآآآآآآآه»، عادت تلهج بأنفاس متقطعة.

سللته منها فجاءة تاركاً بظرها كذلك، ثم أرختُه مبللاً على انفراج مؤخرتها، والتفتُ إلى كريستوف المكوم حذوي وقلتُ له:

«هل ما زلت تصرّ على أن الأير القطين خير من الأير المخ...» لم يدعْني كريستوف أكمل جُملتي وهو يقوم ويقبض على أيري بيده ويعيده مرّة أخرى إلى مهبل هيلين، ذي الشفرين المتناظرين، ويأخذ في إدخاله وإخراجه بعنف، ليحشره في فتحة مؤخرتها وهي تعود للصراخ المتلذذ. باغتتني الهجمة، فقلت وأنا أدفعه في خشونة بعيداً عن زبّي: «ابتعد يا ابن الكلب، أنا لا أحتاج إعانة من أحد لأنيك فرْجاً».

فإذا به ينقض على أيري بلسانه هذه المرّة ويأخذ في لحسه وهو يدخلُ ويخرجُ في دبر هيلين الضيّق، قبل أن أرجعه إلى فرجها. لطمته



على وجهه في قرف وهددته بتحطيم أسنانه لو اقترب من زبّي مرّة أخرى.

كريستوف المسكين استوى على أربع حذو هيلين، وراح يُحرّك مؤخرته مباعداً بيديه بين فلقتي فخذيه، كاشفاً عن ثقب أسود بشع، كثيف الشعر، مبصبصاً كالكلب، صارخاً في جنون: «أحشره هنا، أحشره هنا. أولج المختون فيّ. أولجه. أولجه. أريد أن أعرف الغاضب المختون S'il te plait. S'il te plait».

«لا تُجرّب استشراقكِ مع زبّي يا ابن الكلب. هذا الزّب أحدثُ من كل جهاز عرفته يا وغد. زبّي تقنية حديثة لم تتوصلوا إليها بعد. ما تقوم به أمر خطيرٌ فعلاً. هل الفرنسيون كلّهم هكذا؟» قلتُ موجهاً صفعة إلى ردف هيلين الأيسر.

«أمّي روسية»، قالت هيلين لاهثة، عاصرة المخدة. «هذا يجعلُ منّي فرنسية بنصف فقط»، واصلتْ، وقد سللته منها مندهشاً.

«حقّاً؟» قلتُ وفرجها يضرط مطلقاً هواء عالقاً. «المؤكد أن نِصفكِ الفرنسيّ هو الذي جعجع الآن خواء يا هيلين»، قلتُ ضاحكاً ثم أقحمته في فتحة مؤخرتها.

«أرجوووووووووووووك»، صاح كريستوف، وهو يولج إصبعه في دبره بشكل مقرف، محاولاً استثارتي.

«لا يا كريستوف، هذا مستحيل. ليس قبل أن تتعلم مسح مؤخرتك. ليس قبل أن تجهّزوا كل مراحيض فرنسا بخراطيم المياه. أنتم تضطروننا للتجوال بقوارير بلاستيكية في حقائبنا حين نزوركم. لن أنيكك يا كريستوف، ما دمتم لا تنظفون مؤخراتكم إلا بالورق، وتتركون الخراء



متيبساً على حوافها. أنصحك ألا تُحاول معي. ليس قبل أن تتعلم آداب الوضوء، وتنطق مؤخرتك بالشهادتين».

«أرجوووووووووووووك»، عاد يصيح مبللاً إصبعه بريقه، ليحشره من جديد في ثقبه البشع.

«لا تُحاول»، صرخت، وأنا أرفس في هيلين التي سقطت في غيبوبة شبقية عميقة. «لقد انتهيتمْ يا كريستوف»، أضفت. «أو نحن انتهينا منكم. فرنسا انتهت أخلاقياً. لقد سقطتم سقطة لم تكن لكم بعدها قومة. العالم لا يجب أن ينسى أنّ وزيرة خارجيّتكم Aliott Marie، اقترحت أن ترسل شرطتكم المدربة، وعصيّكم، وكلابكم، وقنابل غازكم، لتآزر الدكتاتور على قمع ثورتنا. لقد فشلتم في إفشال ثورتنا والآن جئتم تتجسسون علينا. هذا لا يُغتفر يا هيلين»، قلتُ لها مخاطباً نصفها الروسي.

«Ah ouiiiiiiiiii!»، صرخت هيلين مُلتذّة، ممزقة المخدة بأسنانها.

«ما ذنبي؟ أنا مواطن فرنسي بسيط لا دخل لي في سياسات فرنسا الخارجيّة».

«كلا يا كريستوف، أنتم تعيشون في بلد ديمقراطي، وتتبجحون أمام العالم بذلك. هذا يعني أنك مسؤول عن سياسات بلدك الخارجية حتى النخاع»، قلتُ وصفعتُ ردف هيلين الفرنسي، البارد.

«هيّا يا ابن الكلب»، صرخت به. «أحضر لي كأس نبيذي من الصالون وسأجعلك ترى أيري للحظات».

«وسمِّ هذا كما تشاء: استشراقاً مُضاداً، «استغراباً»، أو ما تريد»، استرسلتُ وهو يهرع إلى الصالون مُتعثراً في البساط ليحضر لي الكأس وقد عطشتُ لشدة ما تحدثت.

سحبت أيري من دُبر هيلين للحظات، كما وعدتُ، قرّبته من وجه



كريستوف ممسكاً إياه من شعره وهو يمطّ لسانه طويلاً كالثعبان، محاولاً بلوغه للعقه، وأنا أتركه يتعذب، يموت بشهوته ولا يُدركه. ثم أبعدتُ رأسه الغبيّة جانباً، ودلقت على أيري بعض النبيذ وأعدته لشرج هيلين الوردي اللون.

«كُن شهماً واخرج»، قلتُ له. «ألم تر أننا منشغلان».

«!Ah ouiiiiiiiiii»، صرخت هيلين.

لم يردّ كريستوف، وبقي ينظر إليّ في ذهول، قبل أن ينهض ويُغادر الغرفة بعينين زائغتين. ما حصل له الليلة سيغيّر مسار حياته إلى الأبد. غيّرتُ الوضعية لأنال قسطاً من الراحة، جاعلاً هيلين فوقي، تهتز وتنتفض، محركة بين الحين والآخر حوضها كالرّحى، وقد استندتُ إلى المخدّة، مُتمتّعاً برؤيتها تأخذ بزمام الأمور، مرتشفاً كأس نبيذي وبعضه يندلق على رقبتي، فتسارع بلعقه مقبّلة شفتيّ.

هيلين كانت رائعة وهي تهتز فوقي. تقرص حلمتيها الورديتين، المدببتين، وشعرها اللّهبُ يخفق أمام وجهها. «كم نحن منسجمان من دونه، نحن الآن واحد»، قلتُ لها، وهي تُولج إصبعها في فمها تمصّه بفسق.

«!Ah ouiiiiiiiiii»، صرخت هيلين.

فجاءة رأيت كريستوف يُطلّ من فرجة الباب متلصصاً. فقذفته بكأس الكريستال وهو يتراجع مخفياً رأسه. الكأس لم تتكسر، كانت كريستالاً حقيقياً!

«أنت جئت تتلصّصُ على ثورتنا، والآن تتلصص على نيْكنا! هذا ليس سلوكاً ثورياً. لقد حسبتُ أنك صرت شهماً، وبدأت تفهم أحد أبعاد ثورتنا. خيّبت ظني مرّة أخرى يا رجل. قُل لماكسيم حين تقابله،



إن أيمن، يقول لك، إنكم لن تقوموا بثورة في فرنسا ما دُمتم تتلصصون من وراء الأبواب. كن شهماً يا كريستوف، أقولها لك مرّة أخيرة». قلتُ وأنا أنزِلُ هيلين من فوقي وأرتمي عليها أرهز في فرجها رافعاً ساقيها مسنداً إياها إلى منكبيّ، وقد أوشكتُ على القذف.

«اهتفي باسمي يا هيلين»، زمجرت وأنا أطؤها بسرعة جناح الدبّور.

«هيّا، صيحي: Aymen Aymen».

«Amen Amen Amen»، صاحت هيلين.

«أجل، آمين، آآآآآمين. هالّيلويا، آه آه آه...الله»، هتفتُ وسحبتُ أيري في اللحظة الأخيرة لأفرغ حمولتي على فرْجها، فينقذف الزبَد الطوفاني على عانتها الصهباء، منحدراً على بظرها المنتعظ وشفريْ فرجها المتناظرين. كان قذفاً عتيداً جعل هيلين تشهق وهي تدهن بالمني فرجها وبطنها ونهديها وأيري يهبها سخاء خصيتيّ مُعتصراً.

دفعَ كريستوف الباب بقوّة ودخل راكضاً وارتمى على هيلين مسعوراً، يلعق منيّي على بطنها وثدييها وعانتها، وأنا أنظر إليه غير مصدّق، قبل أن أتركه عليها، وأنهض لأستحم.

عدتُ فوجدته مستلقياً حذوها. كان مخطوف البصر جاحظ العينين، كمن شهد للتو انفجاراً نووياً.

«اخرُج وخذ معك حذائك النتن الذي تشبه رائحته رائحة بعض أجبانكم المقرفة»، صحتُ به وأنا أرمي جواربه على وجهه في نفور، وقد التقطها بقلم رصاص ألقيته بعد ذلك مباشرة من النافذة. ثم واصلت: «الآن صارت لك مادّة كافية لتُعدّ تقريرك عن الثورة، وإياك ألا تكون شاكراً في مقالك، وتقول إننا لم نكن متعاونين ومِضيافين».

نهض كريستوف مُطيعاً، حمل جواربه، وحذاءه «الكامومبير»،



وغادر الغرفة لينام في الصالون، وقد أوشك الصباح على الطلوع، وانتهى حظر التجوال.

طلبتُ من هيلين بلطف أن تذهب لتستحم وتعود. انتظرتها حتى عادت. اندسّت بجانبي تحت الغطاء. طبعتُ قبلة لطيفة على رقبتها، ثم عانقتها، ونمنا. كنتُ منهكاً تماماً. لبثنا ننعس لبعض الوقت، عندما سمعتُ كريستوف يتسلل إلى الغرفة كالجرذ، ويندسّ بجانب هيلين تحت الغطاء. لم أشأ طرده هذه المرّة وقد قررت تركه ينام معنا في الدفء. فجأة أحسستُ يداً تتسلل بين ثنايا الغطاء، لتسقط على أيري بطريقة غير عفوية، فقلتُ بصوت بَرِم نصف نائم:

«كريستوف، لا تُحاول».




مكتبة
الفكر الجديد

أروع قيء في العالم

I

طارق كان ثالث المتقيّئين تلك الليلة. تقيّأ على أصيص في التّيراس لأن المرحاض مشغول بشخص آخر يتقيّأ بدوره. قيؤه كان إشعاعيّاً؛ نبتة القرنفل التي أفرغ أحشاءه فوقها ذبلت في الحين، وقد عثرتُ عليها ميتة صباح اليوم التالي.

كانت ليلة شنعاء شربنا فيها بلا هوادة. هناك ثلاثة أنواع من النبيذ على الطاولة، وأربعة أنواع من الجعّة، ونوعان من الويسكي؛ كل جاد بما لديه، وقد تقاسمنا كل شيء. أنا لم أشرب غير الجعّة، وبعض الويسكي احتسيته أوّل السّهرة. كنتُ أعلم أن احتساء أنواع مختلفة من الكحول يُسبّب القيء والصداع. أثرنا صخباً كبيراً برقصنا وغنائنا. كنا قرابة الستة عشر شاباً بين فتًى وفتاة، إضافة إلى أربعة طلبة أجانب، جاؤوا ليعيشوا «أجواء الثورة». بيتنا تحوّل إلى محطّة للكثير من الطّلبة والناشطين اليساريين الأجانب الذين تدفقوا على بلدنا في الأشهر الأولى التي تلت ثورة ١٤ جانفي. كان الأمر وكأن البلد يحتضن ألعاباً أولمبيّة، أو شيئاً أعظم: إنّها ثورة. ثورة.

لاحظتُ أننا صرنا نسكر كل يوم تقريباً، وكنتُ أتساءل عن مدى



قدرتنا على المحافظة على هذا الإيقاع الفَرِح. الناس في الشارع كانوا كذلك سعداء وفخورين. كُنت تميّز ذلك على الوجوه بيسر، خاصة في الفترة الأولى التي تلت هروب الدكتاتور. السياسة كانت معطّلة؛ لم تكن هناك شرعية لأحد. لم تعد هناك شرطة. المظاهرات والاعتصامات في كل مكان. بعض الطرقات كانت مقطوعة. أكوام الزبالة في الشوارع بلغت أحجاماً لا يُمكن تخيلها. ورغم أن البلد كان في حالة من الفوضى العارمة، فإنه لم يكن أروع وأعظم من تلك الأيام.

كنتُ واقفاً عند المدخل الذي يفصل بين التيراس والصالون، أشاهد أصدقائي في مرحهم وصخبهم، مفكراً في هذا الانفلات الفذ، وكل خشيتي أن ينتهي يوماً، ونسقط في الاكتئاب من جديد. ذلك محتّمٌ على ما يبدو. حاولتُ طرد أفكار متشائمة راودتني، فقفزت نحو الطاولة لأعبّ لي كأساً من الويسكي كرعتها دفعة واحدة، أتبعتها بحبّة زيتون رميتها في فمي ثم انضممت إلى صديقيّ اللذين كانا يغازلان من بعيد فيديريكا الطالبة الإيطالية.

«هيّا، لا تتردّد»، كان إلياس يقول لحمزة: «اسحبها من يدها وستتبعك كالشاة. إنها تنظر إليك. أليس كذلك؟» قال ينتظر تأكيداً مني.

«أجل»، قلتُ لحمزة، «إنها تنظر إليك. هيا خذها إلى غرفتي قبل أن يختطفها شخص آخر».

«إنها لا تنظر إليّ»، قال متشككاً: «تنظر إلى إلياس»، أضاف والطالبة الإيطالية تبتسم ناظرة نحو ثلاثتنا.

«بل تنظر إليك يا أبله»، قلتُ له.

«بل تنظر إليك أنت»، ردّ متوتراً.



«لقد فعلت ذلك بالأمس»، قلتُ وأنا أقرصه من يده ليروح إليها: «هذا دورك اليوم».

«ماذا؟ هل ضاجعتها بالأمس؟!» ساءلني مستنكراً، ثم انفجر ضاحكاً وقال إنه لن يمسّها ما دمتُ أنا قد مسستها.

«كلا، ليس ما تظن. كان ذلك سطحياً. أقسم أنّي لم أنكحها».

«هل أفرغت في فمها؟» سأل مُرتاباً.

«كلا»، أجبت.

«هل قذفت على وجهها؟».

«كلاّ أيضاً».

«هل أولجت مرفقك في فرجها؟».

«كلاّ كلاّ»، قلتُ في نفاد صبر.

«هل...» قاطعته بعصبية: «إنها غير مُلهمة إطلاقاً؛ تلك أشياء تحتاج إلى إلهام كبير». تابعت: «كل ما أثارني فيها بالأمس هو أنها تعرف القراءة والتحدث بعض الشيء بالعربية؛ إنها طالبة لغات. لقد جعلتها تقرأ أمامي، عارية، إحدى مجموعات محمود درويش الشعرية، واكتفيت بالاستمناء على صوتها، وهي تتهجّى الحروف بلكنتها الايطالية العذبة».

«هل فعلت ذلك حقاً؟» قال إلياس ضاحكاً.

«أجل، عربيّتها الركيكة هي أروع ما فيها».

«وهل قبِلت بيسر؟» سألني حمزة باهتمام.

«لا أحد يرفض طلباً لإنسان ثائر»، قلتُ وأنا أدفعه نحو الايطالية



دفعاً. «إنها فرصتك الذهبية اليوم لتفعل ما تشاء. نحن أسياد التاريخ، نصنع أخبار النشرات. أنظار العالم كلها موجهة نحونا. لكنني أشعر أن موسم الثورات هذا لن يدوم طويلاً، قد نفقد النجومية قريباً؛ المصريون والليبيون بدأوا يخطفونها منا. هيّا قبل أن نسقط من جديد في النسيان. ارفع سقف مطالبك اليوم إلى أقصى حد، وستحصل على كل ما تريد».

«هيا يا حنبعل الصغير، روما تشتاق لرُمحك»، قال إلياس وهو يحفّز الفتى الحرون ويدفعه بدوره نحو الشابة الإيطالية التي فهمت الأمر، وراحت تنظر إلى حمزة في رجاء.

«حسناً حسناً»، ردّد لاهثاً، وقد احمرّ وجهه، وأنا وإلياس ندفعه من الخلف نحو الإيطالية. أفلتناه فعدّل من ياقة قميصه ثم أطلق زفرة قصيرة مرتبكة، سحب بعدها نفَساً طويلاً.

«هيّا يا فتى»، قلتُ له، «كدت تُفشِل الثورة بسلوكك المتردد هذا. انظر إليها، إنها مثل مدينة مفتوحة، لن تجد منها مقاومة تذكر. هذه روما زمن الانحطاط؛ ذئبة بلا أنياب، لن تعضّك».

«ستمصّك، أعني أنها هي التي ستَرضَع منك»، قال إلياس ممازحاً.

«حسناً حسناً، لكن لو رفضتْ سيصيبني ذلك بانتكاسة تبقى تلازمني لأيام وأيام. أعرف نفسي جيّدا»، قال وهو يتهيأ للتقدم إلى الإيطالية، معدّلاً وضع نظاراته.

«لو رفضتك سنحتجزها رهينة عندنا وستنيكها غصباً، ولتصر «انغريد بيتنكور» أخرى. هيّا وإلا سآتيها بدلاً عنك». ثم تابعتُ في دهاء: «قصّة الرهينة هذه بدأت تلهمني أشياء لا أعتقد أنّك ستحبّ سماعها».

«سأروح إليها، سأروح إليها»، كرّر حمزة مُتوتراً، وجبينه يتصبب



عرقاً، ثم سارع نحو الطاولة وكرع جرعتي وسكي بتتابع، ليحتقن وجهه ويندفع نحو الشابة الإيطالية مباشرة، يسحبها من يدها ويجرها إلى غرفتي ويغلق الباب.

«سيقتلها نَيْكاً»، قال إلياس مقهقهاً.

«سيتسبب بأزمة دبلوماسية»، قلتُ بنفس المزاح.

«هذا الفوج الجديد لم يعجبني كثيراً؛ الفوج السابق كان أفضل»، قال إلياس متهكّماً.

«حقاً؟ لقد ظننتك مغرماً بالفتاة النمساوية»، قلتُ مداعباً.

«ايريس!!!» صاح. «مستحيل! ألم تر شاربيها؟ شوارب شقراء. ليتك رأيت شعر إبطيها وزغب يديها؛ إنها دابة شقراء».

«بل طالبة فنون جميلة»، قلتُ مُتهكّماً، وأنا أسحب جعّة من السّطل البلاستيكي الضخم الغاص بعلب الصفيح التي تسبح وسط مكعبات الثلج.

«ميلتوس اليوناني أكثر إثارة منها».

«إنه لوطي، هل تعلم؟».

«أجل»، قال إلياس.

«كم شعرت بالخيبة وأنا أرى الفتى اليوناني ميلتوس؛ كنت أنتظر الوقوف أمام نصف إله، أو فيلسوف، وأنت تبلّغني بالأمس على الهاتف أسماء وجنسيات ضيوفنا الجدد. عدا كونه لوطياً، فقد بدا لي الشاب اليوناني سطحياً ولا يختلف عن أي شاب تونسي ساذج».

«يبدو أن ممارسة اللّواط هي آخر ما تبقى للإغريق من أفق اليونان



المُنذثر. إغريق اليوم نسوا ممارسة الفلسفة واحتفظوا بميلهم للواط»، قال ثم أنهى جعّته دفعة واحدة.

«كنت أحسب أن هناك علاقة وثيقة بين الفلسفة واللواط»، قلتُ بمكر: «أم تظنّ أنهم حاولوا أن يوهمونا بذلك ليصرفونا عن التفلسف؟».

قهقه إلياس ثم قال وهو يسحب جعّة أخرى من السّطل:

«لو أن ظهور الفيلسوف عندنا رهين ذلك فإني على إستعداد لأن آتيك بجيش من اللّوطة، لكن ائتن بواحد فقط في عظمة «فوكو» وسأبادله بعشرة آلاف من فحولنا المجاهدين في سبيل حُور الجنّة».

«يبدو أنّ «ميشيل فوكو» كان اليوناني الأخير»، علّقت بنفس الروح المتهكّمة.

«هل تعلم أن ايريس النمساوية سحاقية؟» سألني إلياس مباغتاً.

«ايريس، سحاقية؟!!» استنكرت مقهقهاً، ثم تابعت: «لا أظنها ما تزال كذلك، لقد رأيتها تقبّل طارق هذا العشي، قبل أن يغيبا لبرهة في الحمّام».

«هاهاهاهاها يبدو أن مِثليّتها الجنسية كانت اضطراراً لا اختياراً».

«ومن يجرؤ أن ينكح سنّوراً؟!» قلتُ ساخراً.

«طارق»، قال إلياس بسرعة، لننفجر من جديد ضاحكين.

«أشعر أن هذا النعيم والفرح لن يدوما طويلاً»، قلتُ لصديقي، بعد أن كففنا عن الضحك.

«لا تكن متشائماً، هذه أروع أيام عشتها على الإطلاق».



«أنا كذلك أعتقد أنها أيام رائعة، لكنّي أخشى من حكاية الانتخابات هذه. أحسّ أن كل شيء سينتهي بعد الانتخابات. نحن لم نقم بثورة لأجل أن نقوم بانتخابات، بل لنحيا ونفرح مثل هذا الفرح»، قلتُ وأشرتُ نحو بقية الأصدقاء المنغمسين في رقص ولعب وشرب.

«معكِ حق»، قال إلياس، قبل أن يتركني وينضمّ إليهم.

***

تركت أصدقائي في مرحهم وحملت جعّتين باردتين وخرجت لأقوم بنزهة بالسيارة. ذهني يزداد صفاء عندما أقود، شرط أن أسير بسرعة عالية أو ببطء شديد. كان الليل، وكانت العاصمة ما تزال تموج بالحركة بعد رفع حظر التجوال. سرتُ عبر الطرقات الوسخة والأرصفة المغمورة بأكوام الزبالة. رحتُ أبحث عن أعظم كومة زبالة في المدينة حتى أصوّرها بجوّالي، مفكراً في نفس الوقت في ما يمكن أن نرجوه من الثورة؟

كان سؤالاً أطرحه تقريباً على كل شخص ألاقيه. الأغلبية كانت تستعد للانتخابات، تنتظر قيام سلطة شرعية تستعيد زمام الأمور، وتتخذ القرارات من تحت قبة برلمان مُنتخب، فتقوم بالتنمية، وتوفر الشغل، والأمن، والحرية... وكل تلك الترّهات. لم أقابل أحداً يقول لي إنّه يحبّ أن تبقى الأمور هكذا، كما هي الآن. أشعر أنني الوحيد الذي فهم أن كسر السّلطة وشلّ النظام وتعطيله، هو أقصى ما يمكن أن تقدمه ثورة لشعب مّا. لكن هل يُمكن أن نطلب من الثورة أكثر من هذه الفسحة الجميلة من الفوضى والمَرح؟

كنتُ أشعر بالحزن والامتعاض كلما رأيت لافتة حزب معلّقة على



شرفات إحدى العمارات. الكثير من العمارات الجميلة والقديمة شُوّهت واجهاتها بلافتات الأحزاب. تجاوزنا المائة حزب منذ أيام. كلهم يزمعون الترشح والفوز في الانتخابات. كلهم يسعون لترميم السلطة وإعادة الطوق.

أشرت بجعّتي عبر النافذة محيّياً شرطياً واقفاً عند مُفترق، وهو يتظاهر بعدم رؤيتي وأنا أتعمد المرور أمامه ببطء شديد، عابراً المفترق الذي ترفرفُ جميع أضوائه بالأرجواني. كان أمراً تافهاً، ولكن من المستحيل فعله في ظلّ سلطة شرعية.

الأمور يجب أن تبقى في الأرجواني لأطول وقت ممكن.

أحسستُ فُجاءة بدفق من الفرح الغامر يعبرني كصعقة كهربائية عنيفة. يا إلهي لقد خَبِرتَ هذا الإحساس من قبل؛ إنّه المسّ البهيج. عمّا قليل سأسقط في مهاوٍ عقلية عميقة. أحسّ أنّي أهوي في ثقب أسود وأخرج من الجهة الأخرى وسط عاصفة من الأنوار والألوان. قد أصير نبياً بعد قليل، أو حكيماً، أو مجنوناً. ماذا يمكن أن يحدث لي في هذه الساعات؟ أنا مُلهَم. أشعر أني شخص مُلهَم وخطير.

تركت الدّوران حول مركز المفترق وأوغلت بالسيارة وسط شوارع المدينة المُستسلمة إلى ليل حالم وناعم. أشعر الآن أني أحتوي على طاقة هائلة تكفي لإنارة مدينة صناعية يابانية. طاقة فذّة تكفي لإيقاد نجم أو مجرّة. أودّ أن أنفِق نفسي وأبدّدها، أن أنزل من السيارة وأقبّل الناس على الأرصفة وأصعد إليهم في بيوتهم لأوقظهم من أسرّتهم وأرجّهم رجّاً. أودّ لو يخرج الجميع من بيوتهم ونحتفل. أودّ أن أحتفل وأُعدي الناس بمسّي البهيج. سنحتفل من دون أي سبب. سنحتفل لأن الاحتفال



شيء رائع. لأننا أحياء. لأننا ما نزال هنا. وسعيدون لأننا هنا. «يا أيّها المدّثرون، والنائمون، والسّاهرون خلف شاشاتكم، الحياة تبدأ الآن»، هتفتُ صائحاً عبر نافذة السيارة. «هيّا اخرجوا من بيوتكم، قد حقّ الحقّ، ألم تروا أن الكواكب اصطفّت؟» إنّي أعلن الغد يوم عطلة، وأن من واجب الجميع النزول إلى الشارع للرقص والشرب. المراكز التجارية يجب أن تفتح أبوابها وتضع كل سلعها على المشاع وفي متناول العموم. الناس يجب أن ينهضوا ويغادروا أسرّتهم وينصرفوا عن أعمالهم وهمومهم وينزلوا للشارع للرقص والشرب والمضاجعة والغناء والسّمر. لتتحول العاصمة إلى كرنفال. أقول لكم إن لا حاجة للعمل طيلة أسبوع كامل. سنقلبُ مبدأ العمل؛ ستعملون يوماً وترتاحون ستّاً. سنعيد خلق الدّنيا في يوم ونستوي على العرش ستّة أيام. نحن قمنا بثورة، مزقنا الكتب، ألقينا الرزنامة. كل العدادات الآن في لحظة الصفر. نحن رحم؛ الحياة تبدأ الآن؛ الزمان يبدأ الآن. لا شيء يجبرنا على اتباع أي شيء. سنشك في كل شيء ونثق في كل شيء. سنغيّر وحدات قياسنا، سنغير أعيادنا، سنجعل كل أيامنا أعياداً. نحن أوتينا فرصة أن نكون آباء. سنخلق أنفسنا خلقاً آخر. نحن آباء لإنسانية جديدة...

أقفز من جذوة إلى جذوة. السيارة تسير لوحدها. أشعر أن كلّ شيء مُبهر. يا إلهي! تمتلكني قدرة رهيبة على الانبهار والتحديق. وكأني أرى الأشياء لأول مرّة، وأعيد اكتشاف العالم. كلّ شيء يستحق التوقّف عنده. قد أحتاج عُمر إله لأستوفي انبهاري بكل المخلوقات. كل شيء يبعث على الفرح والانبهار. طالعتني في كثير من الشوارع جبال من القمامة المتراكمة بعد إضراب عمّال البلدية المتواصل منذ أكثر من أسبوع. الناس عمدوا إلى إحراق الزبالة في بعض الأحياء. مشاهد النار



المشتعلة حيث يحرقون القمامة كانت رائعة. سأوقف السيارة لحظة لأتمكن من تصوير كل ذلك. ما تلقيه الأدخنة وألسنة اللهب من ظلال جعل للّيل سحراً موحشاً، إلى جانب الرائحة النفاذة والأدخنة الكثيفة التي تصّاعد من المحارق. شعرتُ بالجذل والانتشاء وأنا أستنشق روائح الزبالة والأدخنة. في بعض الأحياء الأخرى تكونت مجموعات عفوية اكترت شاحنات خاصة وسخّرت متطوعين لالتقاط الزبالة وتنظيم حملات تنظيف. النّاس يتدبرون أمرهم جيداً في الأزمات، ويصبح لديهم وعي بأبسط الأشياء والأمور. هذه حرائق رائعة وعمليات تطهير لا بدّ منها. كل ذلك رائع؛ كل ذلك فذ.

أحسست أن عليّ الكفّ عن الدّوران والنزول من السيارة لِلَمْس النّاس والتثبّت من أنّهم أحياء. من واجبي أن أقاسمهم فرحي. أشعر أن هذا الفرح لن يكتمل إلا بعد أن أصير عَدْوى. أنا رجل موبوء. أنا فرح لا علاج له.

قفزت من السيارة في مشية جذلة هي أقرب إلى النطّ أو القفز. أشعر أنّي أسير على سطح القمر. أنا رائد فضاء. لم يعد للجاذبية الأرضية من تأثير عليّ. اقتربت في خفّة من ثلة من الرجل تحوّموا حول بائع ساندويتشات وبيض مسلوق يقف وراء عربة خشبية عليها موقد يعمل بالغاز. أعرف البائع. إنّه الغُراب؛ يُكنّى «الغراب». رجل قبيحٌ بوجه أسمر عليه تعبير فاتر جامد.

«مرحباً أيّها الثوار»، صحتُ بالفصحى وأنا أندس بين الرجال المتحلقين حول عربة «الغراب». نَظروا إليّ لحظة وقد سمعتُ تحايا وهمهمات ثم عادوا إلى أكلهم.



«يا إلهي تبدو فعلاً كغراب»، قلتُ مُحدّقاً في الرّجل صاحب العربة واللّحية. «انظروا إليه. إنّ له أروع وجه بشع في العالم! يا إلهي! ماذا فعلت لتصبح غراباً؟ لماذا يُناديك الناس بهذا الاسم؟» نظر إليّ الرّجل بتعبير فاتر لا مُبالٍ وسيجارة تتدلى من فمه الأزرق غليظ الشفتين.

«وجهك يُشبه مؤخرة سلحفاة انقلبت على ظهرها. ماذا فعلت لتصير غراباً بوجهٍ ـ مؤخرة سلحفاة؟ أنت عبقري الدمامة أيها الغراب! أنت رجل عبقري»، قلتُ وسحبت ورقة مالية ضخمة ألقيتها على فتات الخبز أمامه وسط حُقَقِ البهارات والملح والهريسة، وأنا أطلب منه أن يسلق ويقدّم البيض للجميع على حسابي. دسّ الغُراب الورقة المالية في جيبه بحركة فاترة وراح يكسّر البيض ويقدّمه للجميع. كان هناك قرابة الثمانية رجال، روّاد حانات شارع مرسيليا القريب.

«أشعر أنّي أتحوّل إلى ثعبان، هذا شعور رائع»، قلتُ وأنا أزدرد البيضة التاسعة عشرة. «لقد رأيتُ هذا الصباح في مستشفى الرازي رجلاً يتحول أمامي إلى دجاجة، وها أنا الآن أتحوّل إلى ثعبان. إني أكتشف في نفسي قدرةً عجيبة على التهام البيض. يا إلهي! لا تنظروا إلى هكذا يا رجال! تعطونني انطباعاً بأنني معتوه أو مجنون! ما أنا إلا سكران مثلكم، أو أكثر سكراً بقليل. هيّا أيّها الغراب، زدنا بيضاً»، قلتُ وأنا أرمي أمامه عشرين ديناراً أخرى، ورحتُ أنادي المارّة لالتهام البيض مجاناً. «سأشتري كل ما لديك من بيض أيها الرجل العابس، ولكن امنحني ابتسامة واحدة لأشعر أني أعديتك بفرحي». دسّ الغراب الورقة المالية في جيبه وأفرغ كل ما لديه من بيض في آنية معدنية ضخمة مملوءة بالماء، وشغل الموقد لتنبعث رائحة غاز قويّة قبل أن تندلع شعلة أرجوانية مُفرقعة، والموقد يأخذ في العمل.



«ألا تبتسم حتى وأنت تُشعل النار يا رجل؟ قولوا له أن يمنحني ابتسامة يا رجال. يا لك من بخيل. يالك من مُقرف. أنت مُجرم يا غراب، لأنك لا تبتسم. أفهم الآن لماذا سمّوك غراباً. أنت ممتلئ بالبخل والغيظ والحقد على الناس. لو تكلّمتَ لانفضّوا من حولك. أنت لا تعرف غير دسّ المال في جيبك. لو تفوّهت لأفقدت الجميع الشهيّة. يا إلهي! أعتقد أنّ فمك أبخر. لو فتحته ستطير منه الوطاويط والغربان والضفادع والخراء والأدران. كم أنت وغد، أسبّك ولا تنفعل. لا تردّ ولا تغضب ولا يطرف لك جفن»، قلتُ والسكارى يتحومون حولنا يزدردون البيض ويضحكون. «ها أني أسبّك وأنت لا ترد. إنّك تخشى أن آخذ منك مالي، فتحتمل سُبابي لئلاّ يحصل ذلك. أنت مستعدّ لاحتمال أيّ خراء لأجل المال. هذا فظيع. فظيع..».

لم أعد أحصي البيض. أشعر أني أكلت ما يكفي لإنشاء مستعمرة من الدجاج. أشعر بالبيض يفقس داخلي. الصِّيصان التي افترستُها تنقرني وتمزقني من الداخل. أنا قشرة عملاقة تُنقَر وتُكسَر لتخرج منها آلاف المخلوقات. يا له من إحساس رائع. أشعر أن الدّم يصعد إلى رأسي.

بات هناك حشد كبير من السكارى والمشردين حول العربة، وقد تناثرت قشور البيض الفارغة على الأرض بالعشرات، وكأن الرجال خرجوا منها ليتجمعوا حولي لأصير أمّهم التي باضتهم. كنتُ ما أزال أهذي عندما لمحتُ رجلاً قصير القامة شديدة النحافة يترنّح بشدّة. كان يقف في صعوبة من شدة السّكر. ينثني إلى الخلف حتى يتقعّر جسمه ثم يرتد بانسيابية خيزرانة تستسلم للهبوب.

«أوّاه! انظروا إلى هذا السكران كيف يتقوّس! انظروا إلى هذه



المرونة العجيبة! أنت تترنح ولا تسقط»، قلتُ مخاطباً إيّاه. «أنت أكثرنا توازناً يا رجل. يا إلهي! كم أتوق لأن أكون مثلك. ألا تعلّمنا الترنّح؟».

جرّبت الترنّح مثله. رُحت أتمطّى كالقوس، منثنياً إلى الوراء والأمام بشدّة، محركاً ذراعيّ لأحفظ توازني. «هذه رياضة رائعة، ألا تجرّبون؟ هيا لنتقوس، لنصِر نبالاً ونطلق سهاماً من الفرح. صدّقوني هذا أعظم ما يمكن أن يبلغه السكران: حكمة الترنّح». أخذ شابّان جريئان يترنّحان معي بشكل رائع، بينما الآخرون يضحكون منّا ويُتابعون العرض مُواصلين تناول البيض المجّاني. بعضهم ظنني فعلاً معتوهاً، إلا أنّني تابعتُ في حماس: «يجب أن نخلّص أجسامنا من ماكينة الحركات والوضعيات اليومية: الاضطجاع، الجلوس، المشي، الوقوف. يا إلهي! أنا أعيد اكتشاف الحركة عبر الترنّح والتأرجح. أنا أكتشف الزحف، الدبيب، القفز، الركض، الطيران، العوم، التشنج، التشقلب، الارتخاء، التمرّغ..».

قفزت أحضن المُترنّح الأكبر من شدّة الفرح والانتشاء. كنتُ سعيداً كمن قتَل للتّو رجلاً. تركته أخيراً فعاد للتّرنّح كقصبة. «يا إلهي! كم أنت سكران. أنت سكران لدرجة أنك لم تعد قادراً على الكلام أيضاً»، قلتُ مخاطباً الرّجل بمزيد من الانبهار، وهو يحاول الكلام فلا ينبسط له.

«مرحى مرحى صحتُ وقفزتُ في هيجان، هذه حكمة أخرى عظيمة لا يمكن بلوغها بسهولة. كم أغبطك يا رجل، لأنك استطعت ألا تتكلّم. لقد استطعت أن تدرك الصمت العظيم بسُكرك. أنت مُعلّم عظيم. من يملك فضيلة الصمت هذه الأيام إنسان جدير بالاحترام والتبجيل. ليتني أقدر على الصمّت مثلك. لقد شاهدتُ هذا الصباح في مستشفى الرازي



رجلاً يتحوّل إلى دجاجة، والآن أقابل حكيم الترنّح والصّمت! يا لي من محظوظ! أنا إنسان محظوظ»، قلتُ وسألتهم إن كان أحدهم يعرف أين تقع أعظم كومة زبالة في المدينة.

نظروا لي مرّة أخرى غير مصدّقين، ثم انفجروا ضاحكين وقد تأكّدوا أنّي مُصاب حتماً بلوثة. إلا أنني قلتُ لهم مُطمئنا: «لا، أنا لا لستُ مجنوناً. أقسم أنّي لستُ مجنوناً، ويُمكن أن أثبت لكم ذلك». ثم سحبتُ بطاقة هويّتي، ورحتُ أجول بها بين الوجوه. «أنا نفساني كما ترون، وأعمل في مستشفى للأمراض العقليّة، وأقول لكم إن في إمكانكم أن تأتمنوني على عقولكم».

«يا له من مُتحذلق»، سمعتُ أحدهم يقول.

«إنّه دكتور، المؤكّد أنّ معه مالاً»، أضاف آخر.

فجاءة تلقيتُ على وجهي لكمة جانبيّة قويّة تلتها ضربة مقصّية بطحتني أرضاً. صرختُ وأنا أتلقى ركلات طائشة على وجهي وبطني: «أنتم تضربونني، تضربونني»، قبل أن تنسلّ يدٌ إلى جيبي وتسحب محفظتي. كنتُ أصرخ ضاحكاً بعنف: «أنتم تضربونني وتسلبونني؛ هذا يعني أنّني غنيّ، غنيّ».

نهضت بصعوبة بعد أن فرّوا وسلبوني مالي وساعتي اليدوية. كنتُ أترنّح وأتماسك بصعوبة والدم يدفق من فمي. شعرتُ بدوار وسكر أشدّ من فرط ما تلقّيتُ من ضرب. وقفتُ مترنّحاً وسط قشور البيض المهشّم، إلى جانبي الغرابُ، وحكيم الترنّح والصّمت.

«لقد سلبوا مالي ولم يسلبوا فرحتي. أنا ما زلت مُبتهجاً يا غُراب. بل أسعد من ذي قبل».



نظر إليّ الغُراب بوجهه الفاتر البارد، قبل أن يقول لي إن أعظم قمامة توجد في «باب سعدون»، ثم دفع عربته وغادر المكان.

«لقد جعلتُك تتكلم أيها الغراب الحزين»، لاحقته بالكلام ضاحكاً وهو يبتعد. «لقد نجحتُ في جعلك تتكلم، والمرّة القادمة سأنجح في جعلك تبتسم»، أضفتُ، ثم أخذتُ ألملمُ أوراقي الملقاة أرضاً، قبل أن أترك حكيم الترنّح والصمت يتمايل وحيداً على الرّصيف، وأمضي نحو سيارتي.

***

تقيأتُ عند السيارة قيئاً أصفر غريباً، لشدّة ما تلقّيتُ من ركل على بطني. كان قيئاً شمسيّاً رائعاً وددتُ لو حملته معي وعلّقته على حائط غرفتي أو في مكتبي بمستشفى الرازي، ليُشعّ عليّ ويبعث في نفسي الفرح والدفء كلما رفعت رأسي نحوه. إلا أني اكتفيت بتصويره بكاميرا الهاتف النقال الذي تركته في السيارة فلم يُسلب منّي.

«يا إلهي! لقد أفقدوني ضرسي كذلك، أفقدوني ضرسي»، صحتُ وأنا أسحبُ ضرساً من فمي بيسر. كان ضرساً تالفاً نخراً يُسبّبُ لي أحياناً آلاماً حادّة. رحتُ أمرّر لساني على موضع الضرس المفقود متأملاً فمي في المرآة الداخلية. كُنتُ أسعد رجل في العالم فقد للتوّ ضرساً.

ألقيتُ الضرس التالف وسط لوحة القيء الشمسيّ وانطلقتُ بالسيارة في عنف متوجهاً نحو ساحة «باب سعدون»، حيثُ تنتظرني، على ما يبدو، أعظم قمامة سأشاهدها في حياتي.

«أنا أيمن النّفساني»، صحتُ من النافذة عبر الطرقات المُقفرة: «في آخر أيام هذا الرّبيع الأول من العام الأول للثورة، أقول لكم إنني كنتُ



هنا، مشيتُ هنا يوماً، على هذه الأرض، وتجولت في هذه الطرقات، تحت هذه السماء المتلألئة. أقول لكم، إنني التهمتُ بيضاً كثيراً، وتلقيتُ ضرباً مُبرحاً، وسُلبتُ مالي، وفقدتُ ضرساً، وحلمت أحلاماً عظيمة. أنا أيمن، أحسّ هذه اللحظات أنني أسعد أهل الأرض، وأحبّ جميع النّاس على حدّ السواء. وأقول لكم إنني تقيأتُ قيئاً أصفر جميلاً، وحاولتُ أن أرفع الحياة إلى مستوى أعلى، وسأظلّ أحاول وأحاول..».

***

شعرت بانجذاب هائل ورائحة الزبالة تتسلل إلى أنفي وقد صرتُ قيد شارع من ساحة «باب سعدون». أوقفت السيارة وهبطتُ أسير وسط أزهُط من الكلاب والقطط والجرذان، كانت تعترضني وتمرّ أمامي وكأنها تحجّ وتسير بدورها إلى حيث أسير. أسرعتُ الخطو مقترباً من نصْب الأقواس الثلاثة في ساحة «باب سعدون»، قادماً من جهة «باب الأقواس»، لتَمْثل أمامي، أخيراً، على ضوء أعمدة الكهرباء، كتلة داكنة ممتدة لأكثر من مائة متر وبعلو ثلاثة أمتار عند بعض المواضع. تقدّمتُ متشبثاً بجعّتي أستمدّ منها القوّة والعافية، مُقترباً من أعظم كتلة حيّة وقفت أمامها في حياتي. رائحتها قويةٌ لا تُحتمل، والذباب والبعوض يطنّ فوقها بالآلاف.

«يا الله!» كدتُ أسقط من الدوار والانجذاب، ورحت أصرخ في جذل وانخطاف: «الحيّ الحيّ».

أبصرتُ مليارات الكائنات المجهرية والدقيقة تتحرك وتتنفس وتتغذى وتهضم وتتزاوج وتفقس وتنمو وتتصارع وتموت في لمح البصر. أشعر بها تتحرك حولي، تغلي وتثور، تتجاذب وتتنافر. الكتلة الحيّة تتموج،



تفيض حوافها وتنحسر، أحسّ بقوّة سحب هائلة. الحيّ يناديني: «يا الله!» شيء مّا داخلي يتجاوب مع روح تلك الكتلة الفظّة والغامضة. إنها تنبض في هذه اللحظات، تتنامى، تعي بنفسها، تنهض في وجهي، تزحف على المدينة، تبتلع البنايات والطرقات، تستهلك الناس والسيارات، تتفاقم، تتعاظم، تطغى وتطغى وتطغى...



أروع قيء في العالم

II

عدتُ إلى البيت أكثر سُكراً مما غادرتُ عليه. مشيتُ مثل إنسان الزبالة. تسقط مني أجزاء تتناثرُ أمامي، ثم تنسحب وتعود إليّ لتأخذ لها موضعاً آخر مني. الالتحام بالكتلة الحيّة حوّلني إلى قوّة تجميع هائلة. ما يضيع مني يأتي غيره يعوّضه. صعدت سلالم العمارة مثل كائن هلاميّ، أو حبّار يمشي على إصبعين. دخلت الصالة التي كانت مغطاة تماماً بسحب التبغ. الجميع تقريباً خلعوا ثيابهم الفوقية وبقوا بصدور عارية. الجو كان لزجاً ورطباً، والموسيقى عالية، والكحول والعرق ما يزالان يتدفقان.

«هل سقطت في مصب زبالة؟!» سألني إلياس مترنحاً وهو يتشمّمني من بعيد: «رائحتك لا تطاق، وعينك متورّمة»، قال وابتعد عني مواصلاً مغازلة فتاة التحقت ببيتنا رفقة صديقتها غداة خروجي.

انفتح باب غرفتي فجاءة لتخرج فيديريكا عارية متعرقة، تركض نحو الحمام، وحمزة يلهث وراءها عارياً منتصباً، محتقن الوجه، ليُطبق باب الحمام خلفها ونحن نسمعها تستنجد وتصيح طالبة مهلة للرّاحة.

أحسست بجوع شديد. لم أعد أستطيع الوقوف والكلام. جثوت على



ركبتي وغطّست رأسي للحظات في سطل الجعّة وسط مكعبات الثلج وعلب الصّفيح العائمة، ثم سحبته مطلقاً شهقة قويّة وقد أحسست أن قبضة جليدية تعصر جمجمتي. ميلتوس الشاب اليوناني كان يُتابع ما أقوم به منذ عدتُ. نهضتُ بعد ذلك مترنحاً وسرت إلى المطبخ وقد نزعت ثيابي وبقيت في «بوكسر». فتحت الثلاجة لأستقبل النفح المنعش وتقرفصت على الأرض ورحت آكل كل ما تصل إليه يدي. أكلت بشراهة بالغة. خلتُ أنني لن أتوقف عن الأكل أبداً. أخيراً توقفت، لأنه لم يبق شيء في الثلاجة. وددت ذلك الحين لو أنحشر داخلها وأنام قليلاً في البرودة. الطقس كان حاراً جداً. استندت إلى حافة الحوض واعتدلت لأفتح الحنفية وأدس رأسي تحتها. الماء المُنهمر أنعشني. بدأت أعود لنفسي وأتماسك. ميلتوس لحقني إلى المطبخ وبقي ينظر إليّ متلصّصاً عبر الباب كهرّ جائع. كنتُ مُتفطناً له رغم إحساس الدوار الذي أخذ يتناقص شيئاً فشيئاً. الخوض في القمامة استهلك الكثير من طاقتي. لا أدري حتى كيف وجدتُ القوة لقيادة السيارة والعودة إلى البيت. ولا أتذكر من تلك الرحلة شيئاً. فقدتُ نفسي هناك، والآن أستعيدها. لم أعد أرغب في شرب الكحول هذه الليلة. ولكن بي رغبة عارمة في شرب قهوة ساخنة وقويّة. سأسكر بالقهوة.

مضيت أعدّ القهوة وميلتوس ما يزال ينظر إليّ. «اقترب أيّها الفتى الإغريقي، ألم تر في حياتك رجلاً يعدّ قهوة؟».

سحبتُ نفساً عميقاً من علبة القهوة ثم أطلقتُ زفرة منتشية. «اقترب لتستنشق هذه الكوكا البنّية»، قلتُ ومددت علبة القهوة نحوه. استنشق ميلتوس رائحة القهوة في تتابع قبل أن أسحب العلبة من أمام أنفه المتدلي كحنفية. عدتُ أسحب أنفاساً سريعة ملهوفة. «يا إلهي! رائحة القهوة تشحنني. أشعر أنني أسترد طاقتي كاملة». أخذت أشم نُثار القهوة



وأسحبه داخل أنفي وفمي تحت أنظار ميلتوس المذهولة، قبل أن أقلب علبة القهوة على وجهي وأعطس بقوة ليتناثر مخاط بُنّي على الحوض الأبيض. وجهي صار قناعاً أفريقياً.

«يا إلهي! هل عرف الإغريق القدامى القهوة يا ميلتوس؟ ترى ماذا قالوا أو ماذا كانوا سيقولون عن القهوة لو عرفوها؟» كنتُ مُنفعلاً، متحمّساً، أتحدث إنكليزية ركيكة أرفقها ببعض الكلمات الفرنسية أو العربية حين تعوزني اللّغة. ميلتوس لم يكن يفهم الفرنسية، كان يُجيد الإغريقية والألمانية، وإنكليزيته تشبه تماماً إنكليزيتي. كنا نتفاهم بصعوبة بالغة. ألقيتُ علبة القهوة الفارغة في الحوض ثم أطبقتُ بغتة على رأسه بيديّ ورحتُ أكلمّه في جذل. «لماذا لا تبدو كإغريقي يا فتى؟ أنت مُحبِطٌ جداً. أستحلفك بقضيب ديونيزوس أن تقول لي لماذا انطفأ أفق اليونان؟ لقد كان الرجال زمانها أنصاف آلهة، والآن ليسُوا حتى أنصاف رجال. يا إلهي! هل يُعقل هذا؟! كيف استطعتم التفريط في وثنيّتكم وتعدّد آلهتكم العظيم، واعتنقتم المسيحيّة البغيضة؟ أستحلفك بقضيب ديونيزوس أن تقول لي كيف استطاع الإغريق التخلي عن عصر كانت الآلهة فيه تغار من البشر، وكان البشر والآلهة على قدر السواء، يمشيان على الأرض جنباً إلى جنب؟ يا رُمح بوسيدون! هل أنّ يونان أخرى ممكنة؟» هتفتُ، وأخذتُ أرجّ رأس الفتى الإغريقي رجّاً. «أشعر أنّني يوناني يا ميلتوس. مُعلّمي العظيم، هنري ميللر، علّمني أنّ اليونان ليست مكاناً، أو بلداً. إنّها حالة وجدانية. يا للرّوعة! أنا Kalos kaghatos»، صحتُ باليونانية وقفزت أعانق الفتى الإغريقي.

«يا إلهي! ماذا تفعل؟ لقد قلتُ نصف إله وليس نصف رجل!» قلتُ وميلتوس يُقرّب شفتيه من شفتيّ في ميْعة، محاولاً تقبيلي. منعتُ القبلة



وأنا أطبق على شعره وأنزله إلى الأسفل ليركع بين قدميّ ويتلقّم أيري في فمه. «هذا رمحُ أبيقور أيّها الإغريقي المُغترب، هل تعرّفته؟».

«ما هذا يا ميلتوس، أنا لا أنعظ! يبدو أنّك لا تُجيد المصّ، أو أنّ الرّجال لا يستثيرونني. هل تعلم أنّك أوّل ذكر يمصّ ذكري؟ هذا شرف عظيم لك أيّها الإغريقي. سأنادي إحداهنّ لتعلّمك المصّ».

«تسنيم! تسنيم»، هتفتُ بقوّة أنادي الفتاة التي يبدو أنّها عثرت لها على رفيق آخر، بعد أن قضّينا معاً طوال فترة ما بعد الظهر. تسنيم لم تسمعني لفرط ما كانت الموسيقى صاخبة. وميلتوس ما يزال يكدّ نفسه في محاولة يائسة لجعلي أنتصب بالكامل.

«لم تأتِ يا ميلتوس، إن حظّك سيّئ جداً هذه الليلة. تسنيم أعظم رضّاعة قابلتها في حياتي، وأعتقد أن لذلك علاقة باسمها. سيفوتك علمٌ عظيم. ليتك سمعتها تتحدّث عن المصّ. أكاد أجزم أنّ لها فرجاً مكان فمها». فجاءة دخل طارق وإيريس إلى المطبخ، ذُهلا وهما يريانني عارياً، وجهي مغطّى بنُثار البنّ، وميلتوس راكع يمصّني، ويدي ما تزال تقبض على شعره.

«أيمن دبّوسي ماذا تفعل؟» صاح طارق وقهقه مشدوها، وأخذ يُنادي الأصدقاء في الصّالون.

«كلّا كلّا، ليس ما تظن. أنا أعين ميلتوس على التذكّر، هذا كل ما في الأمر. ميلتوس يتلقّى الحكمة، أعينه على استرداد تراث وذاكرة أجداده. هيّا يا فتى، يكفي الآن من الفلسفة»، قلتُ وأبعدتُ رأس الشاب الإغريقي عن أيري الذي ارتخى تماماً. مرقتُ بين طارق وإيريس راهاأ ثوبي مغادراً المطبخ تاركاً ميلتوس على ركبتيه، عندما انفتح باب الحمام بقوّة لتخرج فيديريكا عارية متعرقة، تركض نحو غرفتي،



صارخة: «basta basta»، وحمزة يركض وراءها عارياً، منتصباً، صائحاً: «ancora ancora»، ليُطبق باب غرفتي خلفها ونحن نسمعها تستنجد وتصيح طالبة مُهلة أخرى للرّاحة.

«يا إلهي! كم أحبّ هذا البيت المجنون»، قلتُ وهممتُ بالدخول للحمام، عندما لمحتُها... لمحتُها في نصف استدارتها نحوي؛ حركة عفويّة بسيطة، شعرتُ معها أن عالماً كاملاً يُرفع وعالماً آخر يمثل أمامي، وكأنّ إعصاراً هبّ وأعاد تشكيل معالم المكان. بلغتني الهزّة وأنا أرى القدم الرشيقة في دورتها حول مركز الكعب. الهزّة غادرت الرّبلتين إلى الرّدفين، ومنهما إلى النهدين الناتئين، في شدّ وجذب؛ موجات ارتدادية كانت تسري صعوداً نزولاً، تحت فستان أسود منحسر عند الخاصرتين بحزام لازوردي؛ فالرّبلتان، فالرّدفان، فالنّهدان، كلّها أجراس تُقرع للشّبق. عندما لمحتُ وجهها، وقد صرنا مُتواجهين، عاد كل شيء للإختفاء، وتغيّر المكان من جديد. وجدتني واقفاً على سهل منبسط أمام شجرة خوخ محمرّة الثّمر، ثوانٍ، كأنّما في حلم صيفيّ، والريح تهزّ الأغصان المُنثنية وتحمل إليّ الشذى. لم أستطع التعرّض لذلك الجمال أكثر من لحظات قليلة، قفزت إثرها إلى داخل الحمّام ورددتُ الباب واستندت إليه وجلستُ على الأرض. قلبي كان يخفق طرباً، حتى إنّي أحسستُ بالخجل. كانت أجمل امرأة وقعت عليها عينيّ. متى جاءت إلى البيت؟ من تكون؟

قفزتُ أغتسل داخل الحمام في سرعة ونشاط. دعكتُ لحمي جيّداً بالصابون. كنتُ أغسل نفسي بطريقة غير عادية؛ ربّما هو إحساس الخجل، أو التعرّض للجمال، أو «ميلتوس» أو شيء لا أفهمه بعد، كان السّبب. لففتُ خصري بمنشفة عريضة، ثم وضعت أخرى على رأسي وغادرتُ الحمام مباشرة نحو غرفتي، متحاشياً النظر إلى الفاتنة المُربكة.



تفاجأت وأنا أرى فيديريكا واقفة إلى جانب السرير، عارية، تمسك في يدها مجموعة شعرية «لدرويش»، تتهجّى حروفها بعينين مذعورتين، وحمزة جالس على السرير يستمني على صوتها.

«أين براءة الاختراع؟ هذه حقوق محفوظة! أنت تسرق أفكاري أيّها المجنون!» قلتُ وهو يمرس قضيبه في عنف. لم يكن يسمعني. كان مغمض العينين محتقن الوجه، ينخر نخراً مسعوراً، وقد تقوّس ظهره وبرزت فقرات ظهره، وتقلصت عضلات ساعديه وكتفيه وهو يوشك على القذف. «يا إلهي يجب أن يوقفه أحدهم وإلا سيموت وتطلع روحه من أيره!».

«aiuto aiuto»، همست فيديريكا نحوي في رعب وتوسّل، وحمزة يفتح عينيه ويرميها بنظرة مرعبة، قبل أن يرميني بنفس النظرة المتوعدة. كان مثل مُفترس متحفز مُقشعرّ الوبر، بات من المستحيل أن تُسرق منه فريسته، مُستعد للقتال من أجلها حتى آخر رمق. ارتديتُ ثياباً نظيفة سحبتها من خزانتي على عَجل، وخرجتُ من الغرفة تاركاً حمزة مع الرّهينة الإيطالية التي عادت تتهجّى العربية، مُستسلمة لقدَرها...

***

إلياس حاول أكثر من مرّة مغازلتها ومُبادرتها بالحديث. لم يتوقف عن فعل ذلك منذ أن جاءت إلى البيت. لكنّه لم يُوفّق. أخبرني بعجالة، مُترنّحاً، أن ضيفتنا الفاتنة اسمها شَهْرة، وأنّها جاءت من مدينة سوسة صحبة صديقتها. شعرتُ بالإحباط وهو يُخبرني باسم الفتاة التي أتت بها إلى بيتنا. كانت ناشطة نسائيّة يساريّة، وإلى ذلك فهي سحاقية مُتعجرفة. معروف عنها أنّها تتجوّل دائماً رفقة فتيات جميلات، والويل لمن يجرؤ على معاكستهن. آخر مرّة قابلتها فيها كان ذلك أثناء سهرة في بيت أحد



الأصدقاء. قالت لي من دون مُقدّمات، أوّل ما رأتني: «أيمن دبّوسي أنا أكرهك!» خيّبتُ ظنّها بصمتي وأنا لا أبدي انفعالاً، وهي تنتظر أن أطلب منها شرحاً أو سبباً. كانت تأمل في فتح حوار، وأمام تواصل صمتي سألتني: «هل تُريد أن تعرف لماذا؟» قلتُ لها: «لا»، ثم تركتها واقفة وانضممتُ لأحد الأصدقاء.

«انظر، إنها تُحاصرها مُحاصرة لصيقة»، قال إلياس في تذمّر، والفتاة السحاقية تسحب الفاتنة من يدها ليصير ظهرها إلينا.

«تبّاً، إنها تحجُبها عنّا. يا إلهي! إنّها تتعمّد استفزازنا».

«ماذا تسمّون السحاقيّات المُعقّدات في التُحليل النفسي؟» سأل إلياس، وعينه لا تفارق ظهر الفتاة.

«القِحاب»، قلتُ ببساطة، وقد عُدتُ لاحتساء الجعّة. «هل تظنّ أنّها سحاقيّة هي الأخرى؟» سألتُه بعد صمت، وحالي تنقلبُ إلى الكدر.

«كلّا، أعرف شَهْرزاد، وأعرف صديقها، قابلته معها في حانة بمدينة سوسة منذ أسبوعين. لكن من يدري، علّها صارت سحاقيّة»، تابع إلياس: «أو تلعبُ على الحبلين».

«كلّ النّساء سحاقيّات إلى أن يثبُت العكس»، قلتُ وسحقتُ علبة الصفيح الفارغة.

«لا أعتقد أنّ هناك سحاقيّة تُشبه أخرى. لكنني أظنّ أن هناك نوعين رئيسيين»، قال، ثم تابع في تأمّل: «النّوع الأوّل جميلات فائقات الجمال، يولين عناية فائقة لمظهرهنّ وأنوثتهنّ. هذا النّوع من السحاقيّات وقعن في حبّ أنفسهنّ، ولشدّة ما يعشقن أنفسهنّ، فإنّهنّ لا يبحثن إلا عمّن هنّ مثلهّن - نساء جميلات على شاكلتهنّ. وعلى العموم، ليس لهنّ مُشكلة مع الرّجال، وهنّ مرحات ومُتفتحات، وصداقتهنّ مُمكنة.



أمّا النّوع الثاني فذكوريّات، لا يُبدين أيّ عناية واهتمام بمظهرهنّ. دميمات في الغالب، يرتدين ثياباً كالرّجال، ويقفن كالرّجال، ويتحدّثن كالرّجال، ويجلسن بساقين مُتباعدتين كالرّجال، وإلى ذلك فهنّ بذيئات لا تكاد كلمة «زبّي» تنقطع من أفواههنّ. هؤلاء، يُبدين في الظاهر عشقاً للإناث، ولكنهن يكرهن الأنوثة في قرارتهن، ويمقتنها مقتاً شديداً. إنّهنّ بحسب رأيي عاشقات للرجال مخذولات، لم يبق لهنّ غير التشبّه بالرّجال؛ نقمة ومنافسة، قصد إغاظتهم وإثارة غيرتهم».

«يا إلهي! أنت أعظم من فرويد يا إلياس، أنت نفسانيّ بالفطرة. هذا تحليل رائع».

واصلَ إلياس: «أظنّ أنّ سحاقيّتنا هذه من الصّنف الثاني. إنّي أفكّر في سبب صحبتها الدّائمة لفتيات جميلات. أعتقد أنّ أملها في الرّجال لم يخِب بعد. أنا واثق أنّها تنتظر في قرارة نفسها رجلاً يأتي ويُغازلها، رجلاً لا يكترث بالجميلة التي في رِفقتها، فيقصدها هي، مُتجاوزاً صاحبتها. إنّها تنتظرُ من يأتي ويُعالج كبريائها المشروخ، ويعيد لها الثقة في أنوثتها المهزومة، فتتأكّد أنها هي الأخرى أنثى ومرغوبٌ فيها».

«أنت داهية ومُحلّلٌ عظيم، هيّا اذهب وعالجها في الحال، أمامك فرصة حقيقية لتُثبت هذه النظريّة، وسأتكفل أنا «بشَهْرة» في المُقابل».

«اذهب إلى الجحيم»، صاح إلياس مُقهقهاً، ثم أضاف: «أنا أتيتُ بالنّظريّة وأنت عليك بالتّطبيق».

«بل يجبُ أن تُجرّب على نفسك. العباقرة الحقيقيون يُجرّبون على أنفسهم أوّلاً».

مكثتُ أمازح صديقي وعيني لا تُغفِل الحسناء المُطوّقة، إلاّ أنّي لم أُضِع الفرصة لتقبيلها والتّرحيب بها في بيتنا، مُستغلاً فرصة دخول



صديقتها للحمّام. ثم عدتُ قرب إلياس مواصلاً النظر إليها، لنتبادل الابتسامات من حين لآخر، وصديقتها السحاقيّة تعود من الحمّام ناظرة نحوي في ريبة.

كانت الثالثة فجراً تقريباً. بعض الأصدقاء غادروا. طارق وإيريس النّمساويّة كانا في التّيراس يُجدّدان «ليالي الأنس في فيينّا»، كانا يبدوان كعاشقين قديمين. ميلتوس اختفى، لم أره منذ تركه جاثياً على ركبتيه في المطبخ. غيّرت نوعيّة الموسيقى معدّلاً الكمبيوتر على إحدى إذاعات الجاز على الإنترنت، مخفّضاً الصّوت، ليصير الجوّ هادئاً وناعساً. السّهرة تقترب من نهايتها. من تبقّى من الأصدقاء كانوا جالسين على كراسي أو على حشايا جاء بها إلياس من غرفته. دفعت باب غرفتي برفق أتفقد حمزة والرهينة الإيطالية. كانا مستلقيين على السرير الضخم، ورأسه على صدرها بين نهديها الصغيرين. كانت تُداعب شعره برقّة، بينما يغط في نوم عميق كطفل أنهكه اللعب. نظرت الإيطالية نحوي في سكينة، ثم ضمّت إليها حمزة في استحواذ، مغمضة عينيها، مستسلمة للنوم هي الأخرى.

اغتنمتُ فرصة وجود إلياس مع شَهْرة وصديقتها لأنضمّ إليهم وأتأمّل فاتنتي عن قرب. إلياس وريم ـ السحاقيّة ـ كانا يتحدثان في السّياسة، وشَهْرة تُتابع حديثهما من دون اهتمام كبير. حيّيتُ الجميع بهزّة رأس ثم جلستُ إليهم. خُيّل إليّ لحظة أن «شهرة» سُرّت بانضمامي. حاولتُ أن أبدي اهتماماً بالموضوع لأضفي مشروعية على انضمامي، وكلّ اهتمامي كان مُركّزاً على الفتاة التي ترتشف كأساً من النبيذ الأحمر. رحتُ أتأمّل تفاصيلها الدقيقة: شفتاها كانتا في حُمرة الخوخ. انتقلتُ إلى أصابع يديها، وقدميها، وطلاء أظافرها، كانت تضع حلقة فضّية حول بنصر قدمها اليسرى. كانت آسرة... أحسستُ أنها تفطّنت لنظراتي العاشقة وأنا



أرفع بصري عنها في صعوبة حتى لا تتفطّن رفيقتها التي يبدو أنها كانت منغمسة تماماً في سِجال سياسي. ورغم أنّي أعتقد أن أفضل طريقة لإنهاء سهرة وإفسادها هي الخوض في موضوع حول الدين أو السياسة، فإني كنت أتمنى أن يطول ذلك الجدل لأنعم بالنظر إلى شَهْرة لأطول وقت مُمكن. وضعتْ الفاتنة كأسها على الطاولة وعادت للجلوس على الكرسي بأناة. تقلّصات وجهها تدلّ على أنها ليست على ما يُرام.

«أظنّ أنّني سأتقيأ، لقد شربتُ على الطّوى. بطني فارغة»، قالت بصوت مُتقطّع، وملامحها الجميلة تعود للتقلص.

أشرتُ نحو الحمام في تفاجئ وأنا لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل. قصدته مسرعة فتابعتها بقلب يخفق. «لكن حتى لو تقيأتِ عليّ كنتُ لأكون أسعد رجل في العالم»، همست وراءها في افتتان.

إلياس وريم لم يتفطنا لغيابها، كانا مُنغمسين تماماً في نقاشهما. وددتُ لو تبعتها إلى الحمّام. لكن ذلك كان كفيلاً بإثارة ريبة العنّاء السّحاقيّة التي تكاد تسحب رشاشاً وتطلق النار على إلياس لشدّة ما احتدّ النقاش. قمتُ وتركتهما متظاهراً بالبحث عن علبة جعّة. بقيتُ أرْقبُهما من بعيد محتسياً جُرعات صغيرة. يبدو أن لا شيء كان يقدر على زحزحتهما وصرفهما عمّا يتناقشان فيه. تركتُ الجعّة على الطاولة وانسللتُ وراء الفاتنة إلى الحمّام. الباب كان موارباً. كانت واقفة هناك في ارتباك تنظر تارة إلى الحوض وتارة إلى وجهها في المرآة. استأذنتها للدخول فسمحت لي مُتلعثمة مُعتذرة. قالت إنّها أرادت القيء في المرحاض لكنّها لم تستطع لأن المرحاض كان مسدوداً بقيء شخص آخر، فاضطرّت للقيء في «اللافابو». عادت تقدّم لي اعتذاراتها وأنا أنزِل غطاء المرحاض لأواري القيء، ثم وضعتُ سبّابتي على شفتيها لأوقف



سيل اعتذاراتها. أربكتها حركتي وقد شعرتُ بجسمها يتصلّب خاصة لمّا أقفلتُ باب الحمام.

«لا عليكِ»، قلتُ وأنا ألقي نظرة على «اللافابو». «سأقوم بتنظيفه».

ذهلتُ وأنا أرى القيء في الحوض. كان قيئاً صافياً، فريداً، بلون العُنّاب؛ أروع قيء في العالم! شعرتُ بانجذاب هائل تُجاه ذلك القيء. «يا إلهي! أروع من قيئي الشمسي»، ردّدت في خفوت. «انظري تدرّج اللّون، انظري كيف يعكس الضوء، هذه لوحة مجرّدة، هذا أروع قيء في العالم»، قلتُ للفتاة التي لم تجد ما تقول.

«نحن مضطرون لإزالته للأسف C'est une œuvre éphémère. لكن في الإمكان تصويرها»، قلتُ وسحبتُ هاتفي النقال وصوّرتُ لوحة القيء العُنّابي. أريْتها بعد ذلك الصّورة، ثم صورة قيئي الشّمسي، مقارناً بين القيأين، شاعراً أنّها بدأت تحسّ بالخوف.

«هل تسمحين؟» قلتُ وأنا أصوّب سبابتي نحو لوحة القيء. لم تفهم حركتي، فغمّستُ إصبعي في القيء وتذوقته. «مذاقه رائع، كلونه»، علّقتُ في حُبّ، وهي تنظر إليّ في اضطراب، محاولة كتم قرفها.

«لا عليكِ، هذا يحصل دائماً»، واصلتُ، ثم فتحتُ شباك الحمام وغمّستُ يدي في القيء، ورحتُ أرفعه وأرميه عبر النافذة. «المرء لا يجب أن يشرب الخمر وبطنه خاوية». عالجتُ انسداد الحوض ونظّفته جيّداً، ثم نظرتُ إليها، كانت واقفة ملتصقة بالحائط ترمقني بنظرة غريبة.

«الآن يجبُ أن نغسلكِ صغيرتي»، قلتُ وفتحتُ الحنفيّة وأخذت يدها برفق، لأضعها تحت الماء الدافئ وأفرك أصابعها وكفّيها بالصابون في عناية ولين. كانت مستسلمة تماماً. بعد ذلك التقطتُ منشفة بيضاء



بلّلتها بالماء الساخن وثنيتُ ركبتيّ ونزلتُ أمسح القيء الذي جاوز بعضه حافة الحوض واندلق على أصابع قديميها وصندلها اللازوردي. نظفت قدميها بنفس العناية، اليُمنى، ثم اليسرى. حتى الحلقة الفضيّة التي حول بنصرها خلعتها برفق، غسلتها، نشّفتها، ثم أعدتها. نظفت صندلها كذلك وألبستها إياه، بعد أن جعلتها تقف حافية على منشفة في الأثناء. أحسستُ لذة قصوى وأنا أقوم بذلك. كان إحساساً فريداً ينتابني لأول مرّة. كُنتُ للحظة أمّها، وكانت ابنتي الصّغيرة، وكنتُ على استعداد لتنظيف كل إفرازاتها عن طيب خاطر، ومن دون أي شعور بالقرف. وددتُ كذلك لو قبّلتُ ولعقتُ قدميها العاجيّتين، وطيزها الجميلة، لو غسلت كامل جسمها. ما أظنّها لتمانع لو قمتُ بذلك. كانت متجاوبة معي بالكامل. حتى نظرتها تغيّرت وقد صارت ترمقني بامتنان، وأنا أعتدل لأقف قبالتها مُبتسماً في حنوّ. شكرتني بتلعثم، ففتحتُ لها باب الحمّام، لتخرج كالمنوّمة، وتعود للجلوس حذو إلياس وريم، اللذين لم يحسما نقاشهما بعد.



بعد أسبوع.

استيقظتُ بمزاج إله. نهضت باكراً، من تلقاء نفسي، رغم أنّي كنتُ في عُطلة. قفزتُ من السرير في خفة وفتحتُ النافذة لأجدد هواء الغرفة. كنتُ فرحاً بالصباح والشمس المتدفقة على صدري ووجهي. حدّقتُ في قرص الشمس البازغ للحظات قبل أن أغلق عيني ويظلّ القرص منقوشاً على بصري، أرجوانياً، يغلي كحبّة أسبرين في الماء. شعرت بقشعريرة لطيفة ونسمة فجريّة تهبّ لتمنحني إحساساً بمزيد من الانتعاش. مضيتُ مباشرة نحو الحمام. حاولتُ قدر الإمكان تناسي الحلم القصير الذي



أفقتُ منه، وأنا أغسل وجهي بالماء البارد. كنتُ بمزاج رائع. لم أكن أعير أهميّة كبيرة لأحلامي، ولا أدونها في الغالب. الحلمُ الذي أفقتُ منه منذ قليل كان حُلماً وقحاً كاد يُفسد عليّ يومي. كنتُ ألعق قدم الفتاة التي ستأتي للعشاء عندي هذه الليلة. لم تكن هناك ضرورة لذلك الحلم، فما سيأتي لاحقاً سيكون أجمل وأروع بالتأكيد، وسأقوم به على مهل، من دون خشية من أن يوقظني أحد أو يُقاطعني. وحتى إن حصل طارئ وتخلّفتْ ضيفتي عن موعدنا، فإني أفضّل سماع صوتها المعتذر على الهاتف، على أن ألعق خارج قدمها في حلم مُحبِط قصير.

كان عليّ الاستعداد لاستقبال ضيفتي التي أنتظرها منذ أسبوع. شَهْرة، صاحبة أروع قيء في العالم، ستكون ضيفتي هذا المساء. ستأتي للعشاء عندي بعد أن دعوتها. كانت قد تدبّرت رقمي وهاتفتني صبيحة اليوم التالي. اتصلت لتُبدي لي شكرها وامتنانها. قالت لي إنّها تعتقد أنّني شخص مجنون وطيّب، لأنّ ما فعلته معها في الحمّام، ليلة أمس، كان شيئاً نبيلاً لم يفعله معها أحد من قبل. كانت تتحدّث بتأثّر وامتنان حقيقيين. فقلتُ لها إنّي مُعلّم شبق، وإن ما فعلته معها كان من آداب الضيافة لا غير. أضافت بأنّي أثرْتُ فيها أحاسيس وانفعالات لم تعتدها، وأنّها تودّ أن نتحدّث في ذلك الشأن. فدعوتها للعشاء عندي، فقبلت بكل لطف.

كنتُ وحدي في البيت. رفيقي إلياس وشريكي كان على سفر. تنفست بملء رئتي رائحة القهوة التي كادت تفور خارج الآنية النحاسية وأنا أبعدها عن النار في آخر لحظة وأسكبها في فنجان أبيض صغير. الرّائحة النبيلة انتشرت في أرجاء البيت الذي أشعر أنه يتنفس القهوة ويُقاسمني فرحي وانتظاري. شغلت على الكمبيوتر سيمفونية الفصول الأربعة «لفيفالدي»، وتركتها تتدفق وتتصادى في الأرجاء، وجلستُ في



التّيراس لأشرب قهوتي هناك، تحت الشمس. ارتشفتها على مهل. كنتُ ممتلئاً بثقة عجيبة. ثقة في الحياة. ثقة تُمكّنني من تقبّل كل شيء، والفرح بكل شيء، حتى لو كان فاجعة. إليّ أيّتها النّوازل والأحداث الجسام! إليّ أيّتها الأفراح! أنا مُستعدّ لكل شيء، لكل موعد، مُستعدّ لاختبار كل بُعد من أبعاد هذه الحياة. أشعر أنّني دائماً على موعد؛ على موعد دائم مع شخص مّا، أو شيء مّا، في مكان مّا.



زِدْهَا نَيْكاً

أعتقد أن النعيم على الأرض بات مُمكناً في ذلك اليوم الثاني أو الثالث من شهر رمضان الكريم. نعيم بشري خالص ما زلتُ أصرّ على أنه لا يزال ممكنا، رغم أن الأمور تغيرت كثيراً منذئذ. نعيم بلا أحزمة ناسفة، أو شهادة. نعيم لا يحتاج حرباً، ولا حتى ثورة. وحدها إرادة النعيم، في تلك الأيام السعيدة، كانت كافية لإحلال الفردوس الأرضي.

كنا في أواخر الصّيف، نقترب من أوّل موعد للانتخابات مُنذ اندلاع الثورة، بينما ثورات جانبية ما تزال تندلع هنا وهناك، في مخفى عن العيون. مضى يومان ربّما، أو أكثر، ونحن لا نُغادر السرير إلا لتعريجة على المطبخ أو الحمام. كنا مُنقطعين تماماً عن العالم. كنا نحن أنفسنا كل ما نريده من العالم. وباستثناء زُرقة السّماء، والشمس التي تأتينا من النافذة، ما كان ليحوجنا شيء. نقيل من حين لآخر قيلولات قصيرة، أو ننال دُشّاً ثنائياً مُنعشاً، نُواصل فيه ما بدأناه على السرير، أو على الأرض، أو فوقِ الكتب، وفي كل مكان.

أذكر أني صحوت على صوت المروحة، أسبح في نور مُعمٍ، كنتُ لا أكاد أستطيع في خضمّه فتح عيني. كانت الظهيرة. كل شيء من حولي يتوهج بياضاً، حتى خلتني متُ وبُعثت مشتبكاً مع فتاتي، لأمثُل على



غمامة بين يدي إله جميل جليل. الغرفة بأكملها ترفل في نور غامر يخترق قلب الأشياء ويجعل الجوّ تموّجاً كذوب العسل.

وإذ مرق شُعاع من الشمس عبر النافذة وتسلق السرير ليسري على اللحاف الناصع، وينتشر بطيئاً على شعر إيناس الفاتح، المُمددة بجانبي، كأنه يود أن يشده في حزمة واحدة، وهواء المروحة يطيره ليبعثره من جديد. كنتُ أفتح عيني قليلاً، من حين لآخر، لأتابع تقدم الشعاع اللمّاع، الذي واصل طريقه متسلقاً الحائط الأبيض، قبل أن يتبدد على السقف. كنتُ بين النوم واليقظة، أحلم بإيناس، أراني معها في الغرفة المُتقدة، نستسلم لنفسينا ثانياً، ننصهر في الظهيرة، ونصرّف جسدينا في ما لا يخطرُ ببال، قبل أن أراها لوحدها، تتلظى، تكتوي بنار تسري تحت الجلد، والشمس شعاعٌ يسقط على بظرها الزهري، فتتمطى، والشعاع يتْبعها، وهي تُروّضه، حتى كأنه ينبعث منها.

أعتقد أن المرء ليصير شفافاً بعد يومين مُتواصلين من العُري. في تلك الظهيرة المُعمية، صرتُ أبصر عبر إيناس. مستلقية بجانبي، كنتُ أرى قلبها يخفق ويرجف، ورئتيها تمتلآن بالهواء وتنكمشان. أبصرتُ عمودها الفقري، أحصيتُ فقراته فقرة فقرة، وأضلعها كنتُ أراها أيضاً، وأرى ما خلفها. ربما كانت هلوسة، ولكني كنتُ أبصر الدم ينز في العروق وينتشر في كل البدن. أبصر حتى الحشفة تخفق في رحمها كفؤاد، والمني ينقذف منها ألقاً رجراجاً. كنتُ أطّلع على جمالها الباطن، وأمد يدي إلي صدرها لأمسك قلبها في قبضتي، وأحسّه يخفق لأجلي. أنا أقول إنّه سقط عنا يومها الجلد واللحم والعظم، وصرنا خطوطاً صافية، ونقاطاً من الضوء، وعُدنا فكرة مجرّدة.

***



«زجاجة نبيذ أبيض، ثلاث قطع من السّكر، قطعة لا بأس بها من الجبن، وبعض الخبز المُحمّص، هذا كل ما بقي لدينا»، قلتُ ووضعتُ الطبق أمامها على الطّاولة. صفّقت بيديها في جذل وقامت وقبلتني على خدي ثم التقطتْ قطعة سكّر ومضت تمتصّها في تلذذ. فعلتُ نفس الشيء ثم فتحتُ زجاجة النبيذ الباردة وملأتُ لنا كأسين.

أتينا على الخبز والجبن سريعاً؛ كنا نتضوّر جوعاً. شربنا نصف زجاجة النبيذ، فعاودنا السُّكر. كنا نشربُ منذ يومين. أخذتْ كأسها وقامت عن الطاولة وقطرات ماء تنحدر من شعرها المُبلل وتنساب على نهديها، وقد غادرت الدش قبل قليل ولم تُجفف شعرها جيداً. دنت من النافذة المفتوحة ووقفت هناك عارية. كانت كائناً فاتناً حطّ من السحاب ووقف عند النافذة. أبصرتُ النبيذ ينسكب في حلقها، وينساب في حنجرتها رقراقاً. كانت شفافة وعذبة، وفم الكأس يكف عن ضغط شفاهها الوردية مخلفاً قطرة عالقة.

«يا حبيباً ذقتُ يوماً أيره»، غنت، ومايلت رأسها انتشاءً. ثم واصلت التمايل مُكرّرة نفس اللازمة من حين لآخر، قبل أن تستند بجنبها إلى إطار الشباك، ويتيه بصرها في زُرقة السّماء.

لا أدري أين كانت تُحدّق، ولكني كنتُ أردد في نفسي بصوت عالٍ: «زدها نيكاً، زدها نيكاً، يا الله، زدها نيكاً». التفتت نحوي بغتة وسألتني بنظرة قلقلة: «هل ما زال يُعجبُك طزطوزي؟» ثم أحنت رأسها إلى الخلف لتلقي نظرة على طيزها الرّائعة. ورغم أني أتيتها أكثر من عشر مرات في اليومين الماضيين إلا أن ذلك لم يمنعني من أخذها مرة أخرى. أيري كان سينفجر وأنا أدع الكأس وأنقض عليها أطعنها به من الخلف.



«انتظر، انتظر لحظة»، هتفتْ وأفرغت كأسها في جوفها ثم أحنت ظهرها وتشبثت بيديها في إطار النافذة السفلي، لنصير زاوية قائمة، ثم تابعت في لهفة: «أريده هكذا، أريده. أدخله كلّه». صفعتها به على ردفيها ثم حككته على شفري فرجها العائم، زادت تهيجاً، فإذا بها تُمرّر يدها عبر فخذيها وتختطفه لتدفعه في حرّها وتأخذ في تحريك طيزها في تمعّج. كنتُ واقفاً ثابت الوقوف، وقد تركتها تنيك أيري، ترهز إلى الخلف وتوحوح لوحدها في جنون. ظهرها المبسوط أمامي يمتدّ حتى الأفق، خطّاً لا نهائياً، سراطاً مُغرياً إلى الأزرق، إلى المُطلق. وددتُ لو تركتُ أيري فيها ومشيتُ فوق ظهرها وخرجتُ من النافذة ومضيتُ لأبعد من الأفق. ولكن، في ذلك اليوم الثاني أو الثالث من شهر رمضان الكريم، انتابني يقين بأنني صرتُ وفتاتي أفقاً للذي خلف الأفق. وأيّاً كان الذي وراء المدى الشاسع، فإننا، في تلك اللحظات، لم نكن نريده.

***

عدتُ إليها من غيبتي القصيرة، وقد بلغتْ لوحدها أكثر من رعشة. ظهرها لم يزل مبسوطاً، وذراعاها ممدودتان على أقصاها، وأظافرها الشفافة تنغرز في إطار النافذة الخشبي. كانت على أهبة الإقلاع في أيّة لحظة. قبضتُ على خاصرتيها وأخذتُ في إقبال وإدبار فيها ببطء، مُحدقاً في أيري يغيب ويظهر، أطبع صفعة على أحد ردفيها من حين لآخر. ثم رحتُ أسلّه بعناية حتى كمرته، كأني أسلخه عنها، لأطبقه فيها بعنف دُفعة واحدة. تصلبت عضلاتُ ظهرها وساعديها وغرّدت وهي تنتظر نزول المطرقة من جديد. قتلتها وأنا أسحبه منها، وأمعنتُ في قتلها وأنا أدقّه فيها. كانت خصيتاي ترتجان من قوة اللّطم، والرعدة تسري



منهما في الظهر، فيخفق الشعرُ الفاتح في الطرف الآخر. ولكنها كانت تستعيد ثباتها وصلابتها بسرعة، لتتهيأ لصدّ غارة جديدة.

كُنّا نلهو. غيّرتُ الإيقاع، ضربات قصيرة مُكثفة، جعلت تغريدها يتقطع ويتسارع. «أسرع أسرع»، خرج الصوت من حنجرتها مُمزقاً، وهي تدير رقبتها يساراً لترى العرض على المرآة الطويلة على الحائط. تشبثتُ بخاصرتيها أكثر وقد عاد يغيب ويظهر من داخلها في سرعة أكبر. صرنا نُصفّق كجناحين، الأمر بات خفقاناً محضاً. أحسستُ أننا نرتفع عن الأرض، كنا نُقلع فعلاً. «أسرع أسرع»، صاحت وأيري يصير شفافاً، حاضراً غائباً، لشدة ما كان يدخل ويخرج. هزمنا الجاذبية للحظات، خلقنا مولّداً بشرياً يعمل بالشبق، دولاباً من لحم ودم. بقينا كذلك إلى فراغه، معلّقين بين سماء وأرض، ليتهاوى كلانا وقد فُكّ الارتباط أخيراً. كدنا نختنق من اللهاث والضحك، ونحن مُلقيان على الأرض نتأمل شكلينا في المرآة.

«أشعر بدبيب النمل في حرّي، إنّه يشكرك نيابة عني».

زحفتُ ليصير وجهي أمام طيزها، كانت مُستلقية على جنبها الأيمن تبتسم وتُغمض عينيها في سرور. فرجُها المُطلّ من بين فخذيها لم يكن زهرة، وشفراه المنفرجان ليسا ببتلات، ومنييّ المُنحدر منه لم يكن رحيقاً. ما كنتُ أراه أمامي كان غنيّاً عن الاستعارة. كان جمالاً يُرى ولا يُسمّى. استعارة لا تقول إلا نفسها. أيري راح ينتفخ. التصقتُ بها في حذر، صوّبته نحو ذلك الغامض المُغري، وأعطيته لها مرة أخرى.

***

أخذنا دُشاً ثنائياً مُطوّلاً بالماء البارد ورجعنا إلى غرفة النوم. عادت هي لإتمام لوحة الأكواريل التي شرعتْ فيها أول أمس، والتقطتُ أنا



كتاباً «لميللر»، لم أستطع منذ يومين تجاوز صفحته الثالثة. كانت ترسم قارورة الـJ&B الخضراء التي أزين بها غرفة نومي. قارورة ضخمة فارغة، بثلاثة لترات، التقطها من القمامة.

لم أستطع تجاوز الصفحة الثالثة مرة أخرى. ألقيتُ الكتاب على السرير، واستلقيتُ على بطني أتأمل عملها وأحتسي كأس نبيذي. لم أكن أفقه شيئاً في تقنيات الرسم. ولكني أحسستُ أن لها طريقة غريبة في التعامل مع الألوان. كانت تُمرّر ريشتها على الورق الصّقيل، ببطء، أكثر من مرّة، بينما تُصاب بحمّى السُّرعة وهي تُنقّلها بين حُقق الماء وأقراص الألوان. اللوحة لم تعد تثير انتباهي. رحتُ أنتظر كل مرّة حين تنقُل ريشتها بخفة بين الماء والألوان. هناك، كانت تنشئ لوحة أخرى، راحت ترتسم شيئاً فشيئاً. من رعشة الريشة في الماء، رأيتُ ريش عصفور يتصوّر شيئاً فشيئاً، ليصير جناحاً أخضر صغيراً. بعد ذلك تصوّر الذيل من رعشة أخرى، ثم ظهر الظهر، والعنقُ. كلّما تُغمّس ريشتها المخضبة في الماء، كنتُ أرى عصفوراً ينفش ريشه ويغتسل. ثم ظهر عصفور ثانٍ، أصفر، يغتسل وينفش ريشه بدوره. كان رائعاً هو الآخر. عُصفوران صغيران، يقفان وسط الحُقق، ينفشان ريشيهما، يُلقيان بمنقاريهما في الماء، يشربان، ويُغرّدان. ولما أتمّت اللوحة كانا قد طارا.

احتفظتُ بأمر العصفورين لنفسي، وهي تقوم عن اللوحة تفتش عن كأسها. صبّت لنفسها ما تبقى في زجاجة النبيذ وجاءت إلى جانبي على السرير. استندتْ بظهرها العاري إلى الحائط، تقتفي برودة تنام في الجدار، وثنت ساقها اليمنى واستندت إليها بمرفقها ممسكة كأسها، بينما أطلقت ساقها اليُسرى. امتدت يدي مُباشرة تُداعبُ أصابع قدمها القريبة. أظافرها كانت مهذبة بعناية وطلاؤها كان شفافاً. راحت تحك ظهرها على الجدار كهرّة، مُغمضة عينيها في دلال. شعرها الفاتح كان



قد جف، وانتشر خلفها على الجدار، بقعة من شمس. ثم فتحت عينيها واختطفت الكتاب المُلقى على السرير، وراحت تحركه أمام وجهها كمروحة. دوخني المشهد. هل كان ميللر يرجو من أدبه أكثر من أن يتحول ذات يوم إلى مروحة في يد فاتنة سكرى؟ هذا هو ميللر في عظمته، هذه روحه المرحة، تمرّ بيننا في هذه اللحظات، نسمة خفيفة، ما عدتُ بعدها أحتاج لقراءة أي كتاب له.

***

غادرنا البيت قبل أذان المغرب بقليل، نحسّ بجوع غريب، لا يُشبه جوع الصائمين. وجهانا كانا نضرين ومُشرقين. كنا نشعر بطهر وخفة، وكأنّا أدركنا ما يُدركه الصّائم، من دون حرمان، وأشرفنا على ما يُشرف عليه المُتصوف، من دون ذِكر واعتكاف.

سرنا مُشتبكي الأيدي، مُغتبطين، مسكونين برعشة غامضة. كنا في دوخة غريبة، وكأنا نكتشف الشارع، والعالم، وندهش لكل ما يُصادفنا. شوارع العاصمة شبه خالية، إلا من بعض المتأخرين، يجاهدون للوصول إلى بيوتهم للحاق بموعد الإفطار. روائح طعام زكية كانت تأتينا من النوافذ المفتوحة مصحوبة بتلاوة القرآن، وصياح بعض الصبية الذين كانوا يلهون أمام بيوتهم ويُشعلون المُفرقعات من حين للآخر.

كانت في الجوّ سكينة، تُميّز شهر رمضان، لا سيما أثناء الدقائق القليلة التي تسبقُ الإفطار. المدينة تقترب من تلك الهجعة القصيرة التي تتلو الأذان، غفوة تعود بعدها الحياة والحركة رُويداً رُويداً إلى الشوارع. كنا نسير على الرصيف، نبحث عن مطعم للإفطار، لمّا باغتنا الأذان، لتتنافس المآذن بالصّوت المُتصادي، وقد اكتمل الأفول.

اعترضنا في سيرنا رجلٌ من عُمّال البلديّة، من ذوي البدلات



الخُضر، يجرّ حذاء الرّصيف عربته البرتقاليّة المتلاشية اللون، وقد باغته الأذان مثلنا، فأرخى قبضتيه عن مقبضي العربة، ونفض يديه، ثم سحب تمرة من جيبه رفعها نحو فمه، لكنه انتزعها من فمه انتزاعاً، وتقدم لنا بها، وقد لمحنا نقترب. كان فعله مُؤثراً ومُربكاً؛ كرمٌ عظيم جعلنا نشعر بأننا محظوظين، لنحظى بكل ذلك الحب الذي كان يُشع من عيني الرجل. أخذنا عنه تمرتين، التهمناهما بتلذذ، قبل أن نشكره ونبادله بأعيننا نفس الحب، ونمضي في طريقنا، وقد قررنا أن نُواصل هُيامنا في الشوارع الخالية. في الأثناء، عصفوران صغيران، أخضر وأصفر، كانا يحلقان عالياً فوق رأسينا، يُلاحقان الشمس المُتوارية، يمضيان بعزم إلى ما وراء الأفول.



رسائل إلى أميركا

عزيزي أيمن،

منذ يومين وأنا أحاول أن أكتب إليك. أشعر أني ما زلتُ أتهيّب من ذلك. أنا الآن في الحافلة وسأهبط بعد قليل. وها إنّ الرّغبة في الكتابة تُراودني من جديد. سأحاول أن أبدأ إذاً، ولأرى أين سيأخذني دفق أفكاري. سأجرّب أن أتحرّر من كل القيود التي يمكن أن تكبح كتابتي. وبما أنك المَعنيّ بهذه الرسالة، فإني سأحاول أن *أنفلت*، مثلما كان الشأن مع جسدي منذ أشهر قليلة. أرجو أن تعذرني لاستعمالي كلمات بالإنكليزية ـ أحياناً أشعر بلخبطة بسبب لساني ثلاثي اللغة ـ وعلّه سيكون من المثير معرفة متى ستأتيني الكلمات بالإنكليزية. لقد فكرتُ لوهلة أن أبعث لك الرسالة الأولى عبر البريد، كان ذلك ليضفي عليها رونقاً خاصاً. لكن أظنني لن أجد الوقت لفعل لذلك. أفضّل أن أكتب بشكل استعجالي، كلما سنحت الفرصة، أعني كلما التقطتُ شيئاً أرى أنّه يُمكن أن يُثير اهتمامك. الأمور هنا تسير بإيقاع سريع جداً، وما لم يُدوّن في الحين قد يضيع إلى الأبد، أو يأتي غيره ليصرف عنه. في هذه اللحظة التي تنقر فيها أصابعي لوح «السمارتفون»، أرفع بصري لأكتشف أن رجلاً غريباً يرمقني. إنّه يبتسم لي، ويجلس غير بعيد عني. يا إلهي! يا لضخامته؛ عملاق مفتول العضلات، وعلى جلده الأسمر أكثر من



وشم ملوّن. ها هو يبتسم لي مرّة أخرى. شكله يوحي بأنّه لاعبُ كرة سلّة. كم أعشق قبّعته وحذاءه الرياضي الضّخم. آه، لحظة. هناك شيء مُريب عند كاحله. ما هذا؟ يبدو كخلخال أو طوق أسود يطوّق كعب قدمه. سأبدأ باستعراض الفرضيّات المُمكنة: تُرى ماذا عساه يكون؟ مُروّج مُخدّرات؟ مُغتصب أطفال؟ سفّاحاً؟ أعتقد أن ذلك الطّوق وضع في ساقه لتحديد مكانه ومُراقبة تحركاته. لكن ماذا لو كان مُجرّد حلية غريبة؟ أظنّ أنّني بدأتُ أصاب بجنون الارتياب. سأصرف بصري عنه حتى لا أخمّن في أشياء أكثر سوءاً... ما هذا أيضاً؟ (يبدو أنّه مساء الجنون.) هناك عجوز تجلس بجانب الشبّاك تنظر لانعكاسها في المرآة وتُمشّط شعرها بفرشاة من البلاستك...



أنا أختنق،

أختنق بسبب هذه الطاقة التي تملؤني، والتي أودّ أن أنفقها. إن الذي أشعر بأنّه يتدفق في دمي، وما كنتُ أحسبه يوماً سيحملني نحو مزيد من القوة والعافية، مطيّراً في طريقه كل ما من شأنه أن يعيق نُموّي ورخائي، يتحوّل اليوم إلى شيء متخثر يُثقلني ويخنقني. إن كل ما يعتمِلُ بي ولا يقدر على الخروج، أولاً يجد الوسيلة للخروج، كلّ هذه الطاقة الملتهبة، تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى غضب ولا مُبالاة تُجاه كل ما يُحيط بي. إنّه غضب موجّه بالأساس نحوي أنا بالذات؛ ضربٌ من الخيْبة.

أقول كذلك إن تواجدي ببلد لطالما عشقته، بكل ما يحتوي عليه من مميزات فنّية واجتماعيّة وعلميّة، أمر لم يُفاجئني البتّة أو لم يشدّ انتباهي! ربّما لكونه أمراً مُتوقعاً أو مُنتظراً. البنية التحتيّة هنا لا يُمكن مقارنتها بأي حال من الأحوال مع ما نعرف في تونس. إنّهم يبعُدون عنّا بقرون. الوجوه كذلك أجمل وأنضر. الفنّانون نراهم على قارعة الطريق. ولكنّ لا شيء من ذلك يجذبني أو يفتنني. كل شيء جميل هنا. كل شيء جميلٌ بشكل فظيع. أشعر أنّهم أنفقوا كل عبقريّتهم وثروتهم ليبدو كل شيء جميل! كل شيء هنا «يبدو»، لا غير! بالرغم من أني شعرتُ أوّل وهلة لوصولي بأنني حَللتُ بما كنتُ أتمنى، فإني سرعان ما تفطّنت إلى أن الخواء يسكن كلّ شيء. إنّ والوجوه الجميلة ليست سوى آخر ما أنتجته عيادات التجميل ومشارط الجراحين. إنّهم يحقنون وجوههم



لتصير ناضِرة، يحقنون عضلاتهم عندما يخرجون للسّهر، يحقنون أيورهم للمضاجعة. البلد كلّه يعمل بالحقنة. هناك حقنة لكل شيء، حتى للولادة والموت.

أعتقد أنني ابتعدتُ عن الموضوع.

كنتُ أقول إنّ طاقتي تتحوّل إلى طاقة سلبيّة، ولكنّي أتساءل في نفس الوقت:

What the hell am I looking for?!

إن ما أبحث عنه، أيمن، هو المغامرة، الجمال، والإحساسات الفذة. أبحث عن عقول فريدة تهبني أفكاراً فذة. أبحث عن بشر أحرار لا أعتقد بأني سأقابلهم في أي مكان آخر؛ أعني أميركيين، أميركيين حقيقيين.

لقد قرأتُ بعض الصفحات حول شخصية نِيل كاسّيدي الذي حدثتني عنه ذات ليلة، إلى أن قادني الأمر إلى كيرواك، والـbeat generation، الأمر الذي دعاني إلى التساؤل إن لم أكن ولدتُ في الزمان الخطأ (الشيء الذي لطالما كنتُ أقوله). إنّهم رائعون، أيمن، ومُلهِمون. ولكنّي لا أعتقد أنّ نمط الحياة الذي ابتكروه، وكل الأشياء العظيمة والرائعة التي استطاعوا أن يحدّقوا إليها، يمكن أن تشغلني وتملأني إلى آخر أيّامي (حدسي يقول لي إن الأمر قد يختلف معك)، ربما سيكون ذلك ممكناً لفترة مّا، بقدر ما سيطول مُقامي هُنا. *هذا* هو *الشيء* الذي أعتقد أن أميركا فقدته. هؤلاء النِّيل كاسّيدي. إنّه لم يعد في أميركا اليوم غير أناس مُستعدّين لفعل أي شيء لشراء روح كاسّيدي، وتجاربه، ومغامراته. أشياء لن يفهموها ما داموا يشترونها ويستهلكونها، وهي



أشياء، من قبيل الحب، لا يُمكن شراؤها. إنّ مُجرّد التفكير فيهم بهذا الشكل يجعلهم في نظري مخلوقات تافهة ومُتعجرفة، كالسَناجب!

آه، السّناجب! إنّها مخلوقات رائعة وتذكرني كثيراً بالناس هنا! يعتقدون جميعاً أنّهم مُتميّزون ومهمّون، ثم ما إن تقترب منهم (أحياناً وأنت تمرّ بجانبهم مرور الكرام) حتى يبدأون بالقفز في كل الجهات ويلوذون بالفرار! وإن حدث وفاجأتهم أو لاحقتهم لمحاولة الإمساك بأحدهم، فإنهم يتحوّلون إلى مخلوقات عُدوانيّة وشرسة. وفي الظاهر فإن السناجب تبدو مخلوقات وديعة وجذابة، كالأميركيين، ولكنّها تبقى في آخر الأمر مجرّد قوارض: des ratons laveurs!.



عزيزي،

أحبّ أن تعلم بأنني صرتُ الآن رسمياً شخصاً بلا مأوى. رغم أنّ وضعيّتي القانونية تجاه الحكومة الأميركية لا غبار عليها. مضى أكثر من شهر وأنا أبحث عن شقة من دون جدوى. أسعار الكراء قفزت بشكل جنوني في الأشهر الستة الأخيرة والشقق المتوفرة توجد في مناطق نائية من لوس أنجلس.

يُمكن أن تقول إن ذلك راجع أيضاً لكون اسمي عَلياء، وليس لي بطاقة مدين «وسجل استهلاكي» يحوي جرداً لتاريخ معاملاتي وشراءاتي ليعرفوا إن كنت أملك a bad credit history أم أنني شخص جدير بالثقة يدفع ما عليه في الآجال.

أعتقد أنّني لم أعثر إلى حدّ الآن على شقة لأنّي لم أنخرط بعد في منظومتهم الاستهلاكية المرعبة. هل تصدّق أن البنوك تمكّن جماهير المستهلكين من بطاقات سَحْبٍ: من يملكون المال منهم لإنفاقه وحتى من لا يملكونه؟ وكل ذلك يُحفظ في سجلّك البنكي الذي يسجّل أدق حركاتك وسكناتك. إنّهم يعرفون عنك كل شيء عبر بطاقات الرّهن تلك، وفي إمكانهم اقتفاء أثرك أينما ذهبت وإحصاء أنفاسك وحتى معرفة مقاس ثيابك الداخلية. لكن كل هذا لا يعنيني الآن. كل ما أريده هو شقة أعود إليها في المساء.

لقد خبِرت طوال هذا الشهر أفظع حالات الإحباط التي يُمكن أن



أمرّ بها. كما عرفت كذلك مناطق من لوس أنجلس لم أكن أتخيل يوماً ارتيادها. كل المعلومات كانت متوفرة على «السمارتفون»: عناوين الشقق، أرقام الهاتف وحتى أسعار الإيجار. وكان كافياً أن أدفع دولاراً واحداً وأركب الحافلة حتى أجد نفسي في أحد أكثر أحياء لوس أنجلس خطورة. عند كل محطّة ونحن نسير نحو انغلدوود كان أشخاص ينزلون وآخرون يصعدون، والوجوه والثياب تأخذ في التبدّل والتردّي شيئاً فشيئاً. شعرت بالجذل وأنا أتابع الأمر. كُنت الوحيدة الثابتة من بيفرلي هيلز إلى اينغلوود، وكنت ألاحظ ذلك التحوّل يحدث أمامي بطريقة لا تُصدق. كان أمراً مذهلاً حقاً. أقسم لك بأنني ما إن خطوتُ أول خطوة خارج الحافلة حتى أيقنت أنّ من المستحيل أن أستقر في ذلك المكان. ورغم ذلك فقد جلت في الأنحاء وجربت الاتصال بأرقام كانت موضوعة على لافتات معلقة. أقول إن من ضمن أحد عشر شخصاً يعترضونك في الشارع كان هناك خمسة سُود وخمسة لاتينيين، وأنا. لاحظت أن اللهجة قد تغيرت، وحتى المعجم كذلك، والإشارات. لن أنكر بأنني شعرت بشيء من الرهبة وأنا أوغل في المكان. ولن أخفيك أيضاً أن البعض ممن أوقفتهم في الشارع للاستعلام، كانوا أناساً جِدّ طيبين. لقد أدهشني أن يتحادث الناس في الشارع في ما بينهم، وحتى سائق الحافلة أثناء الطريق كان يُلاطف سيدة عجوزاً ويعرف بدقة الموضِع الذي تنزل فيه عادة. كان حقاً شيئاً مختلفاً عن تلك الابتسامات الباردة التي اعتدت عليها على الجانب الآخر من المدينة. أذكر أنّني لقيت عائلة مكسيكية، أو لنقل قبيلة كاملة كان أفرادها يقيمون مأدبة في حديقة بيتهم ذي السياج القصير. كانت هناك نار موقدة وشواء ودخان لذيذ يثير الشهية. كان الكل يُقبل على اللحم في شراهة كبيرة. حتى الشابّات كنّ يختطفن الشواء بأيديهن العارية من فوق النار ويأكلن بشراهة



من دون تكلّف ويمسكن باليد الأخرى زجاجات البيرة المزبدة ولفائف الحشيش. أعتقد أن الفرح لا يمكن أن يكون شيئاً آخر غير هذا...

سأسقط تفاصيل كثيرة عن جولتي في انغلوود. لكن لتعلم مثلاً أنّني تهت أكثر من مرة في الشوارع التي لا تنتهي. إنّها شوارع لا تنقصها العناية وإن كانت تحوي الكثير من الأوساخ التي تجعل منها شوارع محترمة جدّاً في نظري. بل لأقل إنّها شوارع أصيلة. هذه ليست الـwalk of fame، إنها طرقُ أميركا الوعرة والفريدة. بعيدة كل البعد عن أنوار هوليوود الزائفة وواجهاتها الاصطناعية. شوارع تحمل على أسفلتها آثار الإطارات المحترقة وبقع الزيت الضائعة ولطخات السخام الأسود المنبعث من نُفاث العوادم المزمجرة. شوارع العصابات والأسنان المحطمة والأحلام المطعونة وبقايا برك الدماء التي أراقتها رصاصات غادرة أطلقت ليلاً. إنّها شوارع كل ما فيها واقعي. شوارع الأبطال المجهولين. وعلّه لن يبقى أمام هوليوود، حين تستوفي كل الأفكار والسيناريوهات، سوى أن توجّه أضواءها وكاميراتها نحو هذا المكان لتستعيد مجدها وبعض واقعيتها المفقودة.

أعتقد أن البؤس هو الشيء الوحيد الذي لا يُمكن التشكيك فيه في أميركا. الناس هنا مستعدون للكذب والتمثيل في خصوص أي شيء عدا البؤس. إذا لقيت البؤس في أميركا فاعلم بأنّه حقيقي.

إن ما توصلت إليه كذلك وأنا أقضي أغلب وقتي في الحافلة، هو أن سُوّاق الحافلات هم الأبطال اليوميون الذين يُنقذون روح الأمّة الأميركية. دعني أشرح ذلك:

أعتقد أولاً أنني أؤمن بشيء لا أعتقد بأنّك تُؤمن به. وهذا الشيء هو الـKarma بالنسبة لي، الكارما هو ابن قحبة خبيث ينتظرك دائماً عند



المنعطف. الأمر يتوقف على مبدأ بسيط. إذا مّا أتيت خيراً فإن ذلك الخير إمّا أن يعود إليك حالا أو يتيه عنك ولا يرجع إليك أبداً. وإذا ما فعلت شراً فثق أن ذلك الشرّ إن لم يعد مباشرة، فإنّه سيهوي على رأسك على حين غرّة وبطريقة مدوّية. ثق أيضاً أنّ الشرّ في وفائه نحوك أوفى من الخير وأصدق.

حسناً. حاول أن تنتبه جيداً لما سأقول. أود أن تعلم أن المعوّقين والشيوخ في هذا البلد هم أناس مبجّلون. على الأقل هذا ما تراءى لي. كلما ركبت الحافلة ـ وهذا شيء أقوم به يومياً طوال فترة زمنية لا بأس بها ـ إلا ووجدتُ مّا لا يقل عن أربعة أو خمسة أشخاص حاملين لإعاقة، إلى جانب سبع عجائز ألقاهم على متنها. والسائق في كل مرّة يهمّ فيها شخص قاصر بالصّعود، يقوم بطقس من الطيبة لا مثيل له. إنّه ينهض عن مقعده. يضغط زراً. تهبط مقدمة الحافلة درجة. يضغط زراً آخر فيبرز بساط معدني يمتد كالرافعة ليأخذ الكرسيّ ويسحبه عند المقاعد الأمامية المخصصة للمعوقين. عند ذلك يقفل السائق حزام الأمان الذي يخصّ الشّخص ويعود إلى مقعده أمام المقود.

هل تدرك أن كل سائق حافلة يقوم بهذا الأمر عشرات المرات يومياً مع كل القاصرين عن الحركة الذين يلتقطهم في طريقه. يقوم به بنفس الاحترام ونفس الابتسامة اللطيفة التي لا تكلّ أبداً. هل تدرك الآن ماذا عنيت قبل قليل بحديثي عن «إنقاذ روح الأمّة الأميركية»؟ سأسرُّ لك بأن سُوّاق الحافلات قد صاروا هم أبطالي اليوميين. وبما أنه ليست لي حياة اجتماعية تُذكر إلى حدّ الآن، فإن أملح دردشاتي وأعمقها كانت مع أولئك الأشخاص الرّائعين. كانت ابتساماتهم اللطيفة تُغني عن تعب يوم كامل.



(كان كل شيء ليكون جميلاً إلى حدّ الآن... لولا ذلك الوغد. أراهن على أنّك قد نسيته. أمّا هو فثق بأنه لن ينساك. إنّه «الكارما» الخبيث. فاحذره).

المرّة السابقة كدتُ أن أهشّم وجهي لما كنتُ بصدد الصعود إلى الحافلة. كانت هفوة من السائق لأنّه مشى لحظة ثم كبح الفرامل على حين غرّة، فوجدتُ نفسي أنقذف بعنف من مكاني وأرتطم بالزجاج الأمامي. ولسوء حظّه (لا تنسَ الكارما) كان السائق المعوّض موجوداً كذلك داخل الحافلة. دعني أقول لك إن رد فعل الرّكاب والسّائق المعوّض أثارت صدمتي أكثر من الحادثة بعينها وأنستني للحظة آلام السّقطة. كان الارتباك والقلق قد سادا. وأخذت السيّدات يسألنني في خشية:

Are you ok? Your're sure. Oh my god! Poor girl. Are you ok?

حتى السائق والسائق المُعوّض كانا يَطمئناني عن حالي في قلق وأسف. ثمّ إن السائق المُعوّض، الذي كان سيّدة زنجية، ذكّرت زميلها بالإجراءات التي يجب اتباعها في مثل تلك الحالات، وقامت لتسحب صندوقاً من أحد أدراج الحافلة.

أول وهلة خلته صندوق إسعاف، لكنها كانت حقيبة صغيرة تحوي أقلاماً وأوراقاً صغيرة خطّ عليها: الاسم واللقب ورقم الهاتف وأسئلة أخرى من قبيل: هل كنتَ هناك وقت الحادثة؟ هل أصِبت؟ صف ما شاهدت. كان واضحاً بأن الجميع يعرفون ذلك الإجراء جيّداً، لأن الصّمت سرعان ما خيّم على الحافلة وقد راحوا جميعاً يملأون تلك الأوراق. كنتُ ألمح في عيون السّيدات مُساندة مُطلقة وإقراراً، وكأنّهن يقلن لي: «أجل، أجل، نحن شاهدنا ما حصل وسنشهد في صالحك».



كان ذلك مرعباً بالنّسبة لي وصادماً، لأني لم أصب إلا بخدش بسيط في جبهتي.

People! Grow up!

هذا الرّجل يُنقذ روح الأمّة الأميركية في اليوم أكثر من مرّة وأنتم تتجندون ضدّه لأجل فتاة أجنبيّة. فما كان منّي وقتها إلا أن سألتُ السّائق المعوّض إن كان زميلها سيتعرّض للمتاعب بسبب ما حصل. فاعتذرت لي قائلة بأنه لا يحقّ لها أن تردّ على هذا السّؤال. كان إجراءً صارماً لا بدّ أن يتمّ في صمت تامّ ومن دون أن نتبادل الكلام في ما بيننا لكي لا يُؤثر الواحد منا على رأي الآخر. بدا لي الأمر مؤطّراً وجدّياً بطريقة تجعلك تُدرك معنى الديمقراطية الأميركية من دون حاجة لأن تقرأ كتاباً واحداً حول الموضوع.

عند ذلك أخذتُ ورقة وكتبت عليها:

"I am fine. I don't want the driver to have problems or lose his job because of a scratch thank you".

أخذت عني المرأة الورقة ثمّ منحتني ابتسامة لطيفة. كان ذلك هو التجاوب الوحيد الذي بدر منها. لكن الأمر لم يتوقّف عن ذلك الحدّ. كنّا كذلك لمّا صعدت إلى الحافلة المتوقفة عجوز بأنف ضخم وشعر أحمر يُشبه الكعكة. بدى عليها الفضول وهي تلمح الأوراق بين أيدينا. فعالجتنا بسيل من الأسئلة التي لا أحد ردّ عليها. «ماذا حصل؟ لماذا الأوراق؟ هل حدث أمر مّا قبل أن أصعد؟».

لا السيّدة الأولى ولا الثانية ولا حتى الثالثة أجابت عن أسئلتها رغم إصرارها على معرفة ماذا حصل. ثمّ إنّها التفتت إليّ. فمنحتها خَزرَة من قبيل أن «في إمكانك أن تيأسي». كنتُ بكل جوارحي، أخوض التجربة،



أختبر الديمقراطية الأميركية حتى آخر رمق. ثمّ إن العجوز اللجوج توجهت بالسؤال نحو السائق المُعوّض. فردّت عليها الأخيرة بأن تكف عن الأسئلة لأنه لا يحقّ لها أن تخبرها بأي شيء. لكن العجوز واصلت تسأل: «لماذا؟ هل الأمر خطير إلى هذه الدرجة؟ ماذا حصل؟».

«سيّدتي لا يحقّ لأحد أن يجيبك. أرجوكِ، من دون إلحاح». كان هذا ردّ السائق الذي جعلِ العجوز تكف عن الأسئلة وتجلس في مقعد وإن أخذت في الابتسام وكأنها تقول: «إن كنتم تعتقدون بأن ذلك أقلقني فأنتم واهمون. المهم هو أن أعرف ماذا حصل...»، وكنتُ في تلك اللحظة أودّ أن أصفعها لأنّ جبيني كان يؤلمني. لكن ذلك كان ليكون ردّ فعل غير ديمقراطي.



قرأتُ رسائلها ثلاث مرات مُتتالية. ثم احتجتُ إعادة قراءتها مرّة رابعة، قبل أن أبدأ في الرّد عليها. أفرحني قدوم الرسائل كثيراً؛ كانت هديّتي الأولى من أميركا. كنتُ قد دردشتُ معها على الفايسبوك، لدقائق، أكثر من مرّة، إبّان الأسابيع الأولى لوصولها إلى مدينة لوس أنجلس. تلك الأيام، كانت ما تزال مُنبهرة، ومُتحمّسة للقيام بالكثير من الأشياء. وكنتُ سعيداً لأجلها. أمّا آخر مرّة ضبطّتها فيها على الفايسبوك فلم تكن على ما يُرام. عرفتُ أنّها ليست على ما يُرام منذ أن صارت تقضي وقتاً مطوّلاً على الفايسبوك. قالت إنّ الأشياء أخذت تفقد بريقها شيئاً فشيئاً، وإن «أنوار المدينة» لم تعد تُبهرها كما في الأوّل.

علياء أو «ليدي فرانكنشتاين»، كما كنتُ أدعوها. فتاة من «العِرق الشمسي»، كان ليقول عنها كيرواك. إنّها من ذلك النّوع الذي يُولد منذوراً لقدَر عظيم. إنّها شمس. ما إن تراها حتى تشعر بأنّ شيئاً غير عاديّ ينبعثُ منها. كنتُ متعوّداً دائماً على جذب المجانين والشُذّاذ. لكن علياء، كانت تنضح بشيء آخر أعظم، مع أني لم أشك لحظة في كونها مجنونة. إنّ ما كان يأسرني في شخصيتها هو ثقتها. ثقتها الصّلبة، النقيّة، والمُتواضعة. إنّها من ذلك النّوع من البشر الذين يشقون طريقهم في الحياة كالسّهم. ما من عقبة يُمكن أن تقف أمامهم. إنّهم ثابتون، مُغامرون، يثقون في العالم، في أنفسهم، ويُشيعون ثقة على الآخرين. لم يكن لقاؤنا عادياً. علياء وقعت عليّ وقوع الصّاعقة. كان انجذاباً



مُتبادلاً. لم تكن بيننا فترة تعارف تقريباً. الأمر كان ارتطاماً من دون مقدّمات. نجمة ترتطم بنجمة؛ تماسّ فذّ؛ شيء من قبيل الانفجار؛ عرض نوويّ!

الليلة الأولى التي قضّيتها معها، مكثنا نتحدّث حتى الفجر. ليلة جمعة على ما أذكر. تحدّثنا بشوق وبلا توقّف. كان مُقرراً أن تزور والديها في مدينة المُنستير صباح السّبت. أصررت أنا على لقائها تلك الليلة رغم أن الوقت متأخر، وقد كنا ندردش على الفايسبوك. وصلتُ إلى بيتها السّاعة الثالثة فجراً، بعد أن وضعتها أمام خيارين، إمّا أن أذهب إليها وإمّا أن تأتي لعندي. كانت مُتفطّنة للعبتي، منذ البداية ـ هذا ما قالته لي لاحقاً ـ فقرّرتْ دعوتي لبيتها لتلعب في ملعبها.

أوّل ما فتحت لي الباب شعرت برغبة مباشرة في دفعها على الكنبة ومضاجعتها حتى قبل أن نتبادل كلمة واحدة. ما كانت لتُمانع على ما أظن. ليس لكونها فتاة سهلة. ولكنّها تُحبّ أن تؤخذ بقوّة. كنتُ أشعر بأنّها متهيئة للّعب. لكنني لم أنسق وراء شهوتي الفظّة. فعندما جئتُ إليها، جئتُ باحثاً عن شيء آخر كنتُ واثقاً من وجوده لديها. بيتها كان عبارة عن صالون صغير بسيط، وغرفة نوم، وحمّام، ومطبخ مفتوح على الصّالون. كان هناك بيانو في الصّالون ولوحة زيتية مُجرّدة تشبه واحدة من تلك التقيؤات الفذة التي كنتُ أقوم بها من حين لآخر. كانت هناك أيضاً أغراض كثيرة مُبعثرة، لكن الثابت أنّها تنتمي كلّها لشخص واحد. بنظرة سريعة أدركتُ أنها تسكن لوحدها. وتلك كانت نقطة إيجابية أخرى في صالحها. صُعقتُ وأنا ألتقط من فوق الطاولة كتاباً لـ «دي. آيتش. لورانس». يا إلهي تقرأ للورانس! قلتُ في نفسي مُحاولاً كتم إعجابي. كانت رواية «عشيق اللّيدي شاترلي»، وقد رحتُ أشمّ صفحاتها الصفر والمهترئة. عرفتُ منها لاحقاً أن تلك الحركة الغريزية التي قمتُ بها



كادت تكلّفني مضاجعة عنيفة، لأنها فكّرت في طرحي تلك اللحظات فوق الكنبة، ومن ثمّ افتراسي حيّاً مع الكتاب.

كانت شاهقة! علياء فتاة شاهقة، تتحدّث دائماً من علٍ، حتى وإن كانت مستلقية على الأرض. لم يكن الأمر من قبيل العجرفة أو الغرور. كلّ ما هناك، أنها كانت تُحلّق باستمرار. ذلك هو الانطباع الذي كان يُراودني كلما تحدثتُ معها. كنتُ أشعر بأنها تحلّق، تندفع بسرعة عالية. كانت امرأة بإيقاع عالٍ. مذنّب يشقُّ اللّحاق به.

في تلك الليلة اكتشفنا عشقنا المُتبادل. لكن إن كان من عشق بيننا، فهو بالتأكيد عشقنا *لأميركا*، وتحديداً مدينة لوس أنجلس الذهبيّة، مدينة الشمس البازغة.

لقد اكتشفتُ أن رؤيتها لأميركا تشبه رؤيتي. إنّها مثلي، تعتقد أن أميركا شِعابٌ، وأنّها شيء فذّ لم يستقرّ بعد. «أريد أن أرحل لأميركا، لا للعثور على شيء مّا، وإنّما لأضيع. أميركا أرض شاسعة للضياع»، هكذا قالت لي. كانت تملك «كلّ شيء» لتبقى في تونس، وتعيش عيشة سهلة ومُرفّهة؛ ما يُمكن أن تتمناه أي فتاة تونسية عاديّة، ولا تناله في أغلب الأحيان. إلاّ أنّها اختارت أن تدع كل شيء، كل ما تحب: عائلتها، أصدقاءها، شقتها الخاصة، وحتى سيارتها النيو بيتل الحمراء، المميزة، لتروح إلى هناك، إلى الغرب، إلى حيث مطلع الشمس.

عندما عرفتها كان ذلك قبل ٥٧ يوماً من موعد رحيلها. كل شيء كان محسوماً منذ البداية. أنا كذلك كنتُ أحلم بالذهاب إلى أميركا. لكن الأمر كان مُختلفاً. هي كان لها مشروع واضح وكانت أكثر تصميماً، أمّا أنا فلم يكن معي سوى *انفعال*. أميركا كانت بالنسبة لي، تلك الأيام، شيئاً يُشبه الحالة الوجدانية العنيفة التي تنتابني من حين لآخر. كنتُ ما



أزال أفكّر في من تكون أميركا التي أبحث عنها، عندما برزت علياء في حياتي. لقد جعلتني صُحبتها القصيرة أحسم الكثير من الأمور في ذهني، وأقرّر أنا الآخر، الرّحيل إلى أميركا. لقد قالت لي تلك الليلة كلاماً عظيماً هزّني. قالت لي إن أعظم ما قدّمته الثورة للتونسيين، هي أنّها أتاحت الفرصة أمام ثلاثين ألف مهمّش لاجتياز الحدود خلسة، والعبور نحو أوروبا في الأسابيع الأولى التي تلت سقوط النظام. قالت لي إنّ هؤلاء المُفلتين ـ على من مات منهم قبل بلوغ الضّفة الأخرى من المُتوسّط ـ هم من فهموا الثورة الفهم الحقيقي. إنّهم لطالما كانوا يعيشون في حالة اختراق للحدود، يُحاصرهم الفقر ويُلاحقهم البؤس. إنهم أناس في حالة فرار مستمرّ، تعلّموا أن يفرّوا وألا ينتظروا شيئاً من أحد. إنّهم يفرون من الفقر، يفرّون من سوء الرّعاية الصحيّة، يفرّون من الاحتقار، يفرّون من القمع والشرطة، يفرون من أنفسهم، إنّهم لطالما كانوا يفرّون، وها هم اليوم يفرّون من الثورة، قبل أن تكشر عن أنيابها وتحاصرهم وتفترسهم. أنت أيضاً يجب أن تفرّ، أيمن. ارحل. أهرب. أهرب، قبل أن يفوت وقت الهروب.



عزيزتي علياء،

أودّ أن أحدّثك عن أمر رائع حصل معي اليوم. إنّه أفضل ردّ يُمكن أن أفتتح به سلسلة الرّسائل هذه؛ شيء لا يحصلُ إلا في أميركا. وأميركا هذه التي أعني، لا توجد في أي مكان. إنّها ليست سوى أدبٍ.

أذكر أننا كنا نُقضي ساعات يتحدث فيها كلّ منّا إلى الآخر عن أمريكاه، وما سأرويه لكِ الآن، أمر لا يحدث إلا في أمريكاي، التي لا تظهر لي إلا نادراً، وفي لحظات غير مُنتظرة.

هذا الصباح، في المقهى، قابلتُ رجلاً حاصلاً على جائزة نوبل. أعلم أنّه أمر جنوني، لأن ما من تونسي حصل على هذه الجائزة، في أي مجال كان. ثم إن هذا الصّنف من البشر ليسوا من هواة المقاهي على ما أعتقد. لكني واثق من أن الرجل لا يكذب. إنّي أعرفه. أعرفه منذ ثلاث سنوات تقريباً. رجل في الخمسين، غريب الأطوار، اعتدتُ أن أراه دائماً في محطّة الحافلة. يجلس طويلاً لوحده ولا يركب أيّة واحدة. يقضي كل الوقت يدخن في صمت. أحياناً أمْضي إلى العمل وأعود فأجده في نفس المكان يُدخن. يُشعل سيجارة جديدة بأخرى مُنتهية. لاحظتُ كذلك أنه يقف أحياناً مُتسوّلاً عند باب مخبزة. يمدّ يده في صمت ولا مبالاة، ولا ينبس ببنت شفة سواء منحته مالاً أو لم تمنحه. كلما اعترضته هناك كنتُ أضع في كفه قطعة نقدية. هذا الصباح تفاجأتُ لمّا رأيته جالساً في تيراس المقهى وأنا أدخل لآخذ قهوتي الأولى



وأمْضي إلى العمل. كانت المرّة الأولى التي أراه فيها جالساً في مقهى، بالرغم من أنّه كان لوحده. ما إن رآني حتى رفع يده نحوي في ردّة فعل، فعلى ما أذكر، لم أخيّب يده الممدودة ولو مرّة واحدة. غير أني كنتُ في مزاج سيئ هذا الصباح ولم يكن معي صرف، فتجاوزته مُتجاهلاً. لما غادرتُ المقهى اتجهتُ نحوه ماداً يدي إلى جيبي، ليُبادرني برفع يده مُعترضاً قائلاً إن بإمكاني أن أحتفظ بمالي. الأمر كان مُفاجئاً بالطبع. (أعلم أنكِ قُمتِ بتشخيص منذ الأسطر الأولى. أجل، إنّه فصامي، ولم أتوقع أن يكون مُحتفظاً بقدرته على الكلام). أصررت أن يأخذ عني المال، مُعتذراً له عن تجاهلي منذ قليل، مُتعللاً بأنه لم يكن معي صرف. أخيراً أخذ مني ديناراً، إكراماً لي، قائلاً بالفرنسيّة إنه حاصل على جائزة نوبل للسلام. (Je suis un prix Nobel de la paix) قال ذلك بابتسامة رائعة. ثم كرّره أكثر من مرّة وأنا أمدّ يدي نحوه لأصافحه بحرارة وتقدير. تركني بعد ذلك ونهض يشتري علبة تبغ من كشك مُجاور وأشعل سيجارة وتوجه نحو محطة الحافلة التي اعتاد أن يجلس عندها.

قد تبدو الحادثة التي حكيتُ لكِ عنها الآن تافهة. لكنه أمر بقي يشغلني منذ الصباح. لقد صدقته تماماً لمّا قال لي إنه صاحب نوبل. إنه يستحق نوبل للسلام بلا جدال. على الأقل، يستحقها أكثر من الرئيس «أوباما»، أو غيره. ربما يكون قد عثر على حلّ للحياة. وفي أسوأ الأحوال، يكون قد اهتدى إلى كيفية ألا يؤذي أحداً سواه. جالساً في محطّة حافلة: رجلٌ بلا مُستقبل ولا آخرة، بلا هواجس أو طموحات، لا ينتظر «غودو»، بل لا ينتظر شيئاً. إنّه يتدرّب على الفناء، ولا ينتظر شيئاً.



عزيزي،

لم أتمالك نفسي عن الابتسام وأنا أقرأ رسالتكَ الأولى. وصلتني أثناء درس الإنكليزية، وقد ألقيتُ نظرة على الهاتف صدفة. لا أعرف كيف أقول، ولكن ما قصصته عليّ بدا لي أمراً طبيعياً رغم طرافته. الجنون ليس غريباً من مأتاه. أمزح بالطبع. ولكنك كُنت لتفاجئني لو حدثتني عن أمر عادي. لا تسألني عمّا عساه يكون الأمر العادي، لأني لا أعرف. حسناً، لماذا لا تُجرّب الجلوس حذو الرجل في محطة الحافلة؟ أعتقد أنّها ستكون تجربة مُغرية. ألا تعتقد؟ أعرف أنك لا تُدخن وبالتالي أضمن أنك لن تتبخر مثله. في المقابل يُمكن أن تجرّب الشرب هناك. لو كنت مكانك لفعلت.

حكايتك ذكرتني بحكاية زنجي مُتشرد قابلته أول وصولي إلى لوس أنجلس. كان أول أميركي تحدثتُ معه لأكثر من ساعتين. إنّه Homeless كما يُسمونهم هنا. إنّهم موجودون بكثرة في أميركا ـ الأمر لا يُصدّق ـ ولجوجون في طلب المال والتبغ. لقد دخّنتُ معه عُلبة تبغ كاملة ونحن جلوس على مقعد عمومي. عيناه كانتا مُحمرتين كجمرتين، وتفوح من أنفاسه رائحة كحول قويّة. أحسستُ أنه يطلبُ مني أكثر من سيجارة وأنا أناوله واحدة. كان في حاجة ماسّة للحديث مع إنسان مّا. لقد جلستُ حذوه ورُحتُ أجيب عن أسئلته وأنا أعرف أني أقوم بمخاطرة، فالمشردون في أميركا عُدوانيون أحياناً، والكثير منهم يُعانون من



اضطرابات نفسية. كان يتحدث بسرعة ويلتهم الكلام فلا أقدر على مُتابعته جيداً. كان يهذي شيئاً مّا حول السياسة، من قبيل أن الزنوج هم الآباء الأصليون لأميركا، وبُناتها الفعليون. وكان يتنقل بسرعة من موضوع إلى آخر. لقد تخلصتُ منه في صعوبة.

سأسرّ لك بأمر أعلم أنه سيروقك. إنها نظرية كوّنتها في ما يخص المُشردين في أميركا. أعتقد أن نصفهم ليسوا حقيقيين. أظن أنّهم أناس يتخفون في ثوب التشرد ليفروا من شيء مّا. إنّها أفضل طريقة لكي تكون حُرّاً في أميركا. أظن أن من بينهم الكثير من الفارّين من العدالة، والسجون، والضرائب، والعائلة، والوظيفة، والمسؤوليات عموماً. المشرّدون لا يملكون شيئاً وبالتالي يملكون أنفسهم وحرية التصرف فيها. لكن حياتهم تبقى قاسية، أيمن. قاسية جدّاً.



عزيزتي،

لقد جرّبتُ الأمر.

اقتنيتُ مساء أمس دستتان من البيرة دسستهما في حقيبة ظهر وجلستُ في محطّة الحافلة حذو صاحب نوبل للسلام. كان كالعادة يُدخّن ويُشعل سيجارة جديدة بأخرى مُنتهية، وخلافاً لذلك، أظنّه لم يكن يهتم لشيء. أعتقد أنّه لم يعرفني، ولم يفطن حتّى لوجودي بجانبه. كان هناك أناس يأتون أحياناً لانتظار الحافلة، يجلسون قليلاً ويمضون. ولم يكن ينتبه لوجودهم أيضاً. كان مُنغمساً تماماً في تدخينه، مُشتملاً بهالة من اللامبالاة، يُبدّد نفسه ويرسلها دخاناً. لقد حاولتُ مثله أن أتفسّخ وأصرفَ نفسي عن الدّنيا. لبثتُ هناك في المحطّة لساعتين أو أكثر، أشرب في خفية، وأتابع في فتور نهْر السيّارات الذي يهدر ولا يهدأ. لا أعرف في أي لحظة تحديداً صرتُ سكران، لأنّي، ولبرهة، استطعتُ أن أصرف ذهني عن كل شغل. ثم أحسستُ أنّ مثانتي ستنفجر. نهضتُ من المقعد ورحتُ لأبول خلف المحطة. إلا أنّني بُلت ورجعتُ للبيت مباشرة وقد انتابني إحساس بالضيق وبسخافة ما كنتُ أقوم به.



عزيزي أيمن،

بصراحة، لم أفكر في معاودة الكتابة إليك إلا بعد أن عثرت على رسالتك هذا الصباح، وإن كانت مُقتضبة. غير أنها كانت فرصة لإعادة قراءة كل ما جرى بيننا من رسائل إلى حد الآن. أتذكر تلك الطاقة السلبيّة التي حدثتك عنها في رسائلي الأولى؟ أعتقد أنها تبدّد شيئاً فشيئاً، وها أنا الآن، أكثر من أي وقت مضى، أقبل بالأمر الواقع، وبالفوضى العارمة التي عصفت بأمريكاي.

إن إعادة قراءة الرسائل جعلتني أدركُ أني بالرّغم من عدم عثوري، هنا، إلى حدّ الآن، عمّا جئتُ أبحث عنه، فإن ذلك لم يمنعني من أن أحتفظ بالأمر في أعماقي، فالأمر بالأساس حالة وجدانية كما تقول؛ حالة نفسية فذّة لستُ مستعدّة للتخلي عنها. ومثلما عثرتُ عليك أنت في «تونُسي»، على صغرها، فإني سأعثر حتماً على شخص مّا، هنا، يُرافقني في هذياني وتقليعاتي التي لا بد لها أن تعاود الظهور.

ها إن الغمامة التي كانت تحجب أمريكاي قد انقشعت الآن. وإنّي لأحاول قدر الإمكان الاندماج في هذه الثقافة، رغم عدم اختلافها عن ثقافتي؛ وأعني بذلك تلك التي في رأسي، وليس الثقافة التي أنتمي إليها. إنّي أحاول قدر الإمكان أن أفهم طبيعة الأفراد الذين يُحيطون بي. وأعتقد أنني سأحدد مع الوقت ملامح هؤلاء الأفذاذ الذين جئتُ أبحث عنهم، والذين سيبرزون من هذا الخليط البشري اللامُتجانس.



بالأمس قمتُ بجولة استكشافية في أحد أروع أحياء لوس أنجلس. حي «واست هوليود» أو حي المِثليين كما عرفت في ما بعد. إنّه حيّ شديد التميّز، معماره فريد ويعكس ذوقاً فنّياً رفيعاً، وهو أنظف أحياء المدينة. أغلب سُكّانه من المثليين، وللمثليين هُنا سلوكات وعادات غير مُتوقعة. صدقني لا أعرف كيف سأصف لك ذلك. بدوا لي راسخين في مثليّتهم وكأنّهم ولدوا مِثليين وتوارثوا الأمر أباً عن جَدّ. حتىّ إن الواحد منهم إذا ما لعب الكحول برأسه يأخذ في معاكسة غير المثليين. لقد رأيتُ أمامي مِثلياً يُحاول مُغازلة عارضة أزياء في غفلة من عشيقه. كان يفعل ذلك مثلما يحدث أن يُغرم رجل برجلٍ، ويشتهيه في لحظة انفلات، أثناء سهرة مجنونة. بدا الرّجل وكأنّه ملّ طبيعته الأصليّة ومضى يختبر أمراً جديداً. المثليّون هنا خرجوا من «الغيتّوهات» وفرضوا لونهم وثقافتهم ونمط عيشهم. وحتى عُمدَة المدينة فهو مِثلي. وحتى غير المثليين، كانوا في يوم مّا، وفي لحظة مّا من حياتهم، مثليين. أكاد أجزم بأنّ الأميركيين يُولدون كُلّهم مثليين، من ثمّ يصيرون شيئاً آخر.

في الأسبوع الماضي تعرّفتُ إلى شابّ إيراني. تواعدنا ليومين فقط، قبل أن أغيّر رقم هاتفي وأقرّر ألاّ أعيد لقاءه أبداً. كان يفوقني سنّاً بتسعة أعوام. ولكنّي أعتقد أن ذكاءه لا يتعدى ذكاء طفل بُعمر ثلاث سنوات. إنّه إنسان فظّ ملهوف وجائع. هاجر إلى أميركا مع عائلته الثريّة في سنّ العشرين هرباً من النظام الإيراني. أعتقد أنّ لا أمل فيه، وأنّه جاء إلى أميركا بعد فوات الأوان، وبعد أن فعل فيه النظام الإيراني فعله. عليك أن تتخيّل شخصاً جائعاً مكبوتاً ألقي به فجأة داخل جنّة بلا موانع ولا حدود، ولك أن تتخيّل ما سيحدث لاحقاً. إنّه شخص مُشِطّ، وعديم الذوق. يسكرُ كل ليلة ويُقيم السهرات ويتعاطى المُخدرات ويضاجع كلّ مرّة فتاة جديدة. أنت تعلم أنّ ذلك لا يُقلقني إطلاقاً. ولكنّ الإيراني



يتعاطى الأمر بشكل انتقامي مَقيت. إنّه يُعطيك انطباعاً بأن مّا يقوم به هو «شيء وسِخ». إنّه يُشبه خنزيراً يتمرّغ مزهوّاً في مُستنقع من الخُرْءِ والوحل. حتى في أميركا، فهو لم ينس الحرمان الذي عاشه في إيران. باختصار، أقول إنّه لم يتوصّل بعد لعيش حياته في وئام مع نفسه ومن دون إحساس بالذنب. إنّ ما يعيشه ليس حياة، إنّه الحرام وقد بات مُمكناً من دون عقاب.

هل تُصدّق بأنّني قبّلتُ شخصاً مثل هذا؟ كانت أوّل حماقة ارتكبتها في أميركا. لو لم آخذ الأمر من باب التجربة، لقطعت شفتي. كان الأمر وكأنّي أقبّل الخواء. لا شيء. لا شيء على الجهة الأخرى، إطلاقاً. كان ذلك فظيعاً. لو قبّلتُ صنماً أو مرآة لكانت القُبلة أكثر إثارة. أعتقد بعد ما حصل لي معه بأنّني سأتجنب ذوي الأصول الشرق أوسطيّة في أميركا لمُدة طويلة.

هناك أيضاً اليابانيّون. إنّهم كُثر هنا. الجامعة تغصّ بهم. يُثيرون عُدوانيّتي بشكل لا يُصدّق. مالك الجامعة ياباني، وحتى أستاذ الإنكليزية، أميركيّ من أصل ياباني. إنّهم يملكون نصف لوس أنجلس. وأحياناً أخال نفسي في اليابان من شدّة ما هم في كل مكان. إنّهم دائموا التوتّر، بشكل يُعطيك انطباعاً بأنّهم مُقبلون في كل لحظة على اختبار مّا. لقد حاولتُ التقرّب من بعضهم في الصّف. ونجحتُ في أن تكون لي صديقة وصديق يابانيان. أعتقد أنّهما شخصان مُختلّان عاطفيّاً. هُما شديداً الخجل. فإمّا أن يكبحا انفعالاتهما بقسوة وإمّا أن يُطلقا لها العنان بعنف.

أوّل ما تعرّفتُ على صديقتي «سايوري» انتابتني رغبة شديدة في «اقتنائها» ووضعها في غرفتي في البيت. إنّها مُذهلة، وكأنّها دُمية من



السيليكون، ولا تختلف كثيراً في شكلها عن شخصيات أفلام «الهِنتاي» الإباحية. «سايوري» تتصرف «كروبوت» لمّا نكون في مكان عام. وكأنّها مُبرمجة أو تتبع دليل سلوكات بحذافيره. ولكن ما إن تسكَر أثناء سهرة في بيت أحد الأصدقاء، حتى تتحوّل إلى قحبة مِغناج يصعُبُ كبحها.

«إيشي»، صديقي الياباني الآخر، لا يختلف عنها كثيراً. عانقته مرّة في أحد أروقة الجامعة لشدّة ما كنتُ فرحة بنتائج أحد اختبارات الإنكليزية، فأحسستُ بأن قلبه قد توقف. لقد توقف عن التنفس فعلاً وجمد بين ذراعي، حتى خلته سيُغمى عليه. «إيشي» نفسه، أصرّ في إحدى السّهرات، بعد أن سكر، على مصّ عيني ولعق بياضها بلسانه الأحمر الطويل، وقد فهمتُ في ما بعدُ بأنّ الأمر بدعة جنسيّة شاذة استحدثها اليابانيون في أفلامهم الإباحية وتُسمّى «اللّعق العيني».

أوّل ما ستأتي إلى هنا أحب أن أعرّفك على صديقتي «سايوري». إنّها كائن فريدٌ يجب أن تتعرّف عليه. هي لا تتوقف عن الإطراء والثناء عليك طوال الوقت. كما أنّها لا تتوقف عن الاعتذار وتكرار كلمة «sorry» لأيّ سبب ومن دون سبب. إنّها تقول «سُورّي» حين تفتح لها الباب، حين تُناولها شيئاً، حين تدعوها لديك، حين تَشرَق أنت، حين تتعثّر في المشي، حين لا يحدث شيء. إنّها تكاد تقول «سُورّي» لأنّها تتنفس بجانبك أو لأنّها موجودة. حتى إنّي صَرختُ بها مرّة لتكف عن قول «سُورّي»، فقالت «سُورّي، لن أكرّر ذلك». صدّقني إنّها تُشبه واحدة من شخصيات أفلام «المانغا» اليابانية. إنّها تفرحُ كما يفرحون، وأحيانا أراها تقفز أو تتزحلق وتبرق عيناها حتى يُخيّل إليّ بأنّني أشاهدُ فلم كارتون، وهذه ليست مُبالغة. لقد قلتُ لك إن اليابانيين يثيرون عدوانيّتي. لكنّهم كذلك يستأثرون بكل شغفي.



حسناً، لقد حاولتُ كذلك القيام بما طلبته منّي آخر مرّة، لكن بعد أن قرأتُ رواية كيرواك: «على الطّريق». الأمر الذي دفعني لأن أقرأ بقية الأعمال الشهيرة لجيل «البِيت». لقد ساءني كثيراً ألا تكون هناك نساء من تلك المجموعة بحجم «كيرواك» أو «بورّوز» أو «غينزبارغ»، إلى أن وقعتُ صدفة على «جويس جونسون». لقد قرأتُ رواية «شخصيات ثانوية» بانفعال كبير. هذه المرأة نجحت في ألا تكون «شجرة على الطّريق» أو محطة يستريح عندها الرجال المُرتحلون، قبل أن يُواصلوا توهانهم الرائع. لقد عثرت هي الأخرى، وبوسائلها الخاصة، على الحياة في مهبّ الطّريق، ولن أقول عنها أكثر. لا بدّ أن تطّلع على الرواية لتُدرك ذلك بنفسك.

لقد قلتُ لك قبل قليل إنني حاولتُ القيام بما طلبته منّي في دردشتنا الأخيرة على «سْكايب»: التُوجه نحو أناس غرباء وسؤالهم إن كانوا سمعوا أو يعرفون شيئاً عن «نيل كاسّيدي» - مُلهم عصابة «البِيت» وقدّيس الشعر والجُنوح في أميركا - لتعرف ماذا بقي من تلك الأسطورة في الذاكرة الشعبية للإنسان الأميركي. أقسم بأنّني وقفتُ أمام ثلاثة أو أربعة أشخاص على الأقل، ولم أجرؤ في آخر الأمر إلا على سؤالهم عن الوقت، رغم أنّني انتقيتهم بعناية بالغة. لكنّيَ ما إن وقفتُ أمامهم، واطلعتُ على ما في عيونهم من حزن، واحتقار، وغطرسة (هذا يختلف من شخص إلى آخر) لم أطلب منهم في آخر الأمر غير معرفة الوقت. أعتقد أنّ ما من ضرورة للسؤال، أيمن. أؤكد لك أن الإجابة كانت لتكون حتماً بالنّفي (for sure).

إنّي أحاول قدر الإمكان أن أقرّب لك صورة الأشخاص الذين أقابلهم كل يوم، الأمر أكثر من معقد، وكأني أحاول استنساخ «بعض



بيكاسو» بيديّ العاريتين. ربّما هذا راجع لنقص في الكلمات والتعابير، أو لضعف في التمييز والملاحظة. لا أدري حقاً. لكنيّ سأضرب لك مثالاً متواتراً بكثرة هنا:

So! Everybody here wants to be an actor! I am not being dramatic; it's really THE THING in LA!

A croire que les gens ne se sentent pas assez acteur de leur vie qu'ils veulent absolument décrocher un rôle, quitte à coucher avec tous les techniciens de tous les plateaux possibles! Se dire pour un jour: OUI, je ne suis peut-être pas le propre acteur de ma vie, mais je sais au moins ce que je suis aujourd'hui: une *porn star* écolière !!!

وإن كان ذلك لشهر أو يوم؛ الأمر ليس مُهمّاً إطلاقاً، لأن ذلك هو كل المطلوب. لا أدري إن كان ذلك راجعاً للتأثيرات السلبيّة للسينما الأمريكيّة عليّ، أو على الأميركيين أنفسهم، ولكن يبدو لي أن الأميركيين لا يعرفون كيف يعيشون بتلقائية، إنّهم يلعبون دائماً دوراً مّا. إنّهم يُمثلون وهُم يُحبّون، ويُمثلون وهُم يحزنون، ويُمثلون وهُم يغضبون، إنهم يُمثلون طوال الوقت، حتى وهُم يُضاجعون أو يموتون. ما يقولونه عن أنفسهم، وعمّا يعتمل بدواخلهم، يقولونه بعبارات يستعيرونها من أفلام ومُسلسلات! هذا أمر فظيع، أيمن. أشعر أنّني لم أقابل إلى اليوم في أميركا غير نسخ بائسة من أفلام من الدرجة الرابعة.



علياء،

أرجوا أن تُواصلي الكتابة إليّ حتى وإن تأخر ردّي. لا أعرف كيف أفسّر هذا التأخير. ليس الوقت ما يعوزني بالتأكيد. أشعر بنوع من التراخي والوجوم اللذين يسيطران عليّ. لا شيء بات يُثير حماستي هذه الأيام، أو يشد انتباهي، ولا حتى أميركا نفسها. هذا مؤسف حقاً. لطالما كانت شيئاً قريباً وممكناً. أما الآن، فأعتقد بأنني نسيتُ حتى شكلها على الخارطة. سأنتظر بفارغ الصبر أن ينقضي الشتاء.

كم أكره الشتاء.



عزيزي،

لقد عثرت على رسالتك الأخيرة بعد يومين من وصولها.

أنا جدّ مُرهقة الآن وأكاد أتهاوى من التعب. كنتُ في رحلة وقدتُ السيارة لسبع ساعات مُتواصلة. يا إلهي! هذا أمر رائع ومنهك. لم أتوقف لحظة عن التفكير فيك وأنا أقوم بذلك. لا بد أن تُجرب الأمر أول ما تأتي إلى أميركا. تذكرتُ حين كنا نقوم بذلك في تونس؛ نشتري البيرة وننصرف بالسيارة من دون وجهة محددة. لكن الأمر مختلف تماماً هنا. ستدركُ فعلاً معنى «الطريق» حين تقود سيارة في أميركا. إنّه أمر روحاني، هذا مما لا شك فيه. سماء صافية وطريق ممدودة بلا نهاية ومحرك يزأر. من دون أن ننسى الوقود والبيرة المتدفقة بلا حساب. هكذا كان يحجّ الأميركيون ويتطهّرون وينسون خيباتهم. كانوا يتوغلون أفقياً. ربما لم يعد إيقاع الحياة السريع اليوم يُتيح لهم مُتسعاً للقيام بذلك. لكن ما إن يُطرد الواحد منهم من العمل أو يُطلّق أو حتى يربح في لعبة قمار حتى يركب الطّريق ويُغيّر المُقام.

قلتُ إنّي كنتُ في رحلة، سأحدثك عنها لاحقاً، أما الآن فلستُ أرغب إلا في شيء واحد: أن أستحم وأنام.



عزيزي أيمن،

سأحدثك اليوم عن أكثر أماكن أميركا رُعباً وإشراقاً. إنّه مكان مُرعب ومهيب، مُكتنف بالغموض والسواد. مكان مغلق ومشحون بالعذابات والأسرار الدفينة. (كما ترى، أنا أتعمد تشويقك، والآن سأمعن في ذلك لأني سأتوقف عن الكتابة وأذهب لأعد قهوة. ما زلتُ أشعر برغبة في النوم رغم أني نمتُ لتسع ساعات مُتواصلة. لم أتخلص تماماً من إرهاق الرحلة).

ها قد عُدت.

أظن أنّي صرتُ أدمن شرب القهوة منذ أن جئتُ إلى أميركا. إنّها شيء لازم كالوقود. المُواطن الأميركي العادي يشرب أكثر من كوبين في اليوم. لكن كوب القهوة الأميركي يُعادل ثلاثة أكواب من تلك التي نعرفها. إنّها حتماً لا تُضاهي القهوة الإيطالية، إلا أنها لا تخلو من جودة وتميّز بحسب رأيي. الناس هنا يحتاجون القهوة وشتى أنواع المُنبهات لأنهم يبذلون مجهودات جبارة، وهاجسهم الأكبر يبقى الأداء. إنّهم مُستنزفون لأنهم مُطالبون دائماً بأن يكونوا في أوج استعدادهم. رغم أن نسق الحياة بطيء بعض الشيء في لوس أنجلس مقارنة بمُدن أميركية أخرى، إلا أن ذلك لم يمنعني من الإحساس باللهاث بسبب إيقاع الحياة السريع. أنا لا أرى في ذلك أمراً سلبياً. على العكس، هذا يُعطيك انطباعاً بأنك تعيش حيوات كثيرة في حياة واحدة مضغوطة. أن تعيش في



أميركا يعني أن تكون باستمرار واقفاً على الحافة؛ على حافة الوقوع في شيء مّا. مثل أن تكون على حافة الرّفت من العمل، على حافة الـburnout، على حافة الإفلاس، على حافة الموت، على حافة الحب، على حافة الطريق، على حافة الحرب، على حافة الجنون، على حافة الإدمان. الناس هنا يُعطون إنطباعاً بأنهم يترنحون طوال الوقت، إنّهم سكارى محمومون، ينوسون ويهذون، ويوهمون بأنهم سيسقطون، لكنهم ثابتون في ترنّحهم الرائع، ومُتوازنون جداً. إنّهم يعيشون دائماً على شَفير.

هناك شيء آخر فذّ لا أعرف كيف سأصفه. أشعر أحياناً بأن الزمان ينبع من هنا قبل أن يتدفق وينتشر على بقية العالم. أشعر منذ جئتُ إلى أميركا بأنني أقف على رأس الزمان. فما يحدث هنا، ويظهَر هنا، يسطع هنا أولاً، ثم يتردد صداه في بقية أرجاء العالم. وحَسْبي أن قُدومي إلى أميركا كان رحيلاً إلى «الآتي». ربما في الأمر بعض المُبالغة. لكن هذا ما ستشعر به حين تأتي إلى هنا. ستُجرب الأمر بنفسك.

قبل أن أرجع للحديث عن موضوع رحلتي، أريد أن أضيف شيئاً: نهاية العالم، أعتقد أنها ستأتي وتنطلق هي الأخرى من أميركا.

إذاً،

لقد استيقظتُ عند الرابعة صباحاً لزيارة ذلك المكان الغامض الذي بدأتُ أحدثك عنه. الطقس كان بارداً جداً في تلك المدينة. ولأكن واضحة وأقول إنها كانت زيارتي الأولى إليها. وقد كلفني بلوغها سبع ساعات مُتواصلة من القيادة. الأمر بحد ذاته كان مُغامرة.

استيقظت في مدينة غريبة. وعند الخامسة صباحاً كان الظلام لا يزال مُنتشراً، والشوارع شبه خالية. تمسّكتُ بكوب قهوتي الدافئة ورُحت



أصّعدُ في شوارع لا أعرفها، بمدينة لا أعرفها، مُحاوِلة بلوغ ميناء لا أعرفه. الخوف والبرد لم يزيداني إلا إثارة. وكنتُ أردد في قرار نفسي بأن كل هذا لازم ورائع، لأنه ما سيهيئني لالتقاط تلك الانفعالات التي يُمكن أن تنبعث من معدن وأروقة المكان الذي أنشُده.

إن الأمر الذي صدمني، لأني لم أعثر على وسيلة أخرى لبلوغ الميناء، عدا سؤال المارّة، رغم أنّي انتقيتهم بعناية كما أفعل دائماً (أعني مثلما أقوم به يومياً للسؤال عن شأن حياتي ضروري)، مُتجنبة قدر الإمكان ألا يكون الشخص سائحاً أو مُتحيّلاً... لقد أطلت. قلتُ إن الأمر الذي صدمني هو أن أهل المنطقة لا يعرفون من أي جهة من الميناء يُمكنني الحصول على التذاكر. حتى إني انفعلتُ وصرختُ في وجه أحدهم: «هل أنت جاد؟ ألديكم أمر بهذه الفرادة والخطورة في مدينتكم وأنت تقول إنك لم تزره بعد؟» لقد اكتفى بالإجابة بأنه لطالما كان يعيش هنا، وبالرغم من ذلك فهو لم يُفكر يوماً في القيام بالأمر. لا بد من القول إن إجاباتهم دفعتني للتفكير في لغز هذا الجُحود الأصلي لدى البشر. فكل مُكتسَب مَضمون يفقد قيمته ويسقط في النسيان. صدقني، أيمن، أكاد أجزم بأن هذه العادة السيّئة هي ما يُدمر البشرية. وإنها لأمر مُتفش كالطاعون، وفي جميع المجالات. وأيّاً كان الموضوع: صديقاً، زوجة أو عشيقاً، وحتى معْلماً تاريخياً شهيراً، فالنتيجة هي نفسها:

You take for granted everything you have!

حسناً،

بعد ذلك المشي الذي استغرق ساعة تقريباً، وبعد أن ابتززتُ بأسئلتي كل من وقعتُ عليه، بلغتُ وجهتي أخيراً. لقد فوجئتُ بوجود



ستة أشخاص في طابور الانتظار. لأني قمتُ بكل ما قمتُ به لأكون الأولى في الصّف، وأضمن الحصول على تذكرة. لا أزال أذكر البرد كيف كان قارصاً، وقد تخيلتُ للحظة كيف سيكون عليه الأمر في ذلك المكان المُظلم الذي أنوي الركوب إليه. ينتابني الآن نفْس الإحساس وأنا أكتب إليك، رغم أنّ الدفء يكتنف الغرفة، والقهوة بجانبي لم يخفت بُخارها بعد.

كان برداً بتأثير مُخدّر. أحسستُ أن وجهي تجمّد وعلق في تعبيرة بليدة، تنم في نفس الوقت عن الذعر والألم والانبهار. لكني واصلتُ الانتظار مُتسمّرة في مكاني حتى يُفتح شباك بيع التذاكر. وكنتُ لم آكل شيئاً عدا القهوة التي شربتها على الريق. وأخيراً، وبعد أكثر من نصف ساعة من الانتظار، بعد أن كاد يصدمني تراماواي، وبعد كل المشاق الأخرى التي تكبدتها لأجل الوصول إلى ذلك المكان، وجدتُ نفسي في الدفء، على سطح المركب الذي انطلق يشق الأمواج المُتلفعة بالضباب.

لم أمكث في الدفء سوى وقت قصير جداً، لأني سُرعان ما خرجتُ إلى سطح العبّارة لئلاّ أضيع أي لحظة من التجربة. وخاصة، لأشاهد، بقلب مُتوثب، الجزيرة المشؤومة التي لم يُسافر إليها قاطنوها إلا في اتجاه واحد، ولم يرجعوا منها أبداً أحياء، وقد تبدّت في النّوء مُرعبة، قاسية، كحدبة الشيطان.

أظنك قد عرفت المكان الآن، إنّه حتماً ALCATRAZE.



عزيزي،

أذكر أن النعاس غلبني المرّة السابقة وقد بلغتُ من الحكاية هدف الرّحلة. أرى أنّك لم تردّ على ما كتبت، وربما لم تطلع عليه بعد. هذا مُحبط بعض الشيء، لكني سأواصل الكتابة كما طلبت في رسالتك الأخيرة والمُقتضبة. آمل مثلك أن ينقضي الشتاء سريعاً. أعرف جيداً حاجتك للضوء والشمس. ثقْ أن الشمس في أميركا لا تزال تُشرق، كما هي عليه دائماً، رغم أنها تُمطر في الخارج. تُمطر بلا ضجيج.

كنتُ قبل قليل أقف أمام النافذة المفتوحة، شبه عارية، أمد يدي إلى الخارج، أستقبل من حين لآخر نسمة ندية، وبعضُ قطرات المطر تسقط على كفّي، ولم أحس لحظة بالبرد. كنتُ أدخن وأرمق عبر النافذة جبل هوليوود. في الظاهر يبدو جبلاً عادياً تماماً، لولا تلك الحروف الضخمة التي زرعت فوقه...

ها أنا الآن أسحب نفساً مُطولاً من لفافة الماريجوانا وأستمع إلى Yom and the wonder rabbis، وتحديداً إلى مقطوعة kaddish for superman، وأشعر بأني أحلق عالياً. كنتُ سأكتب لك عن جولتي بسجن «ألكتراز»، لكن مزاجي الآن لن يسمح بذلك. أعتقد أن أفضل ما في رحلتي إلى هناك كان ما حدثتك عنه من مشاق تكبدتها لأجل الوصول إلى ذلك المكان. أما الباقي فيُمكن التغاضي عنه.

كم أود لو كنتَ معي في هذه اللحظة. كم أود لو تؤكد لي أنت أيضاً



بأن المطر الذي لعقته قبل قليل على كفي كان مطراً وأكثر من مطر. وأن الجبل الذي كنتُ أتأمله، جبلٌ وأكثر من جبل. لا أدري إن كنتَ تفهمني فعلاً. أشعر أن الأشياء حولي حقيقية أكثر من اللزوم. كلما تحسستُ شيئاً هنا، أو لامسته، إلا وأحسستُ به إحساساً مُضاعفاً، مُكثفاً. وهذا ينسحب على الكثير من الأشياء الأخرى. أشعر أن ما تذوقته قبل قليل لم يكن مطراً، وإنما هو المطر. والجبل لم يكن جبلاً، وإنما هو الجبل...

أودّ كتابة une scène d'amour، لأن هذا ما أرغب فيه الآن، ولأني أفكر في تلك المرّة التي تضاجعنا فيها على هذه المقطوعة الرائعة. إنّه الشيء الوحيد الذي لم أختبره في أميركا بنفس الواقعية والشدة التي خبرتُ بها قبل قليل المطر والجبل. هذا ما ينقص أمريكاي، التي أنتَ دائماً جزء منها. إنّي أستحضر تلك المرّة وكأنما كانت... كلا، لم تكن البارحة، وإنما اليوم. أشعر وكأن ذلك حدثَ الآن. أنت تتذكر تلك الليلة حتماً. كنتَ ترتدي قميصاً أبيض ناصعاً وتفوح منك رائحة عطر صيفي خفيف. أذكر أننا شربنا بعض الكؤوس. كان السّكر فينا وحولنا في الجو. ربما كان الأمر أننا «نحن»، مُجرّد نحن معاً، كما في الليلة الأولى. الأمر بدأ بالطريقة الأشد لطفاً، ورهافة. كانت هناك لائحة أغنيات طويلة على «الآي تونز» لكن الأغنيات كانت تتبدل بالصدفة...

الأمر بدأ بالطريقة الأشد لُطفاً،

كنا نقبّل بعضنا بعضاً على كنَبَتي الحمراء، بينما شيؤك يحتد، ويأخذ في التمدد، مُكتسياً كامل فخره واعتداده، دافعاً كل ذلك نحوي، ليُبهرني. أحسسته يتصلّب، وكنتُ غارقة في طوفان من البلل. تبّاً، أنت لا تدري روعة الإحساس الذي ينتابني الآن. كنتُ على حق؛ هذه



المقطوعة، وهذا الشيء الذي أدخنه... هذا مُذهل. لكن الثابت هو أن جسدينا كانا يتمازجان ويتحركان نحو وجهة واحدة And things were getting better and better . وكنتُ متهيجة لتأتيني أكثر من أي وقت مضى. النوتات الأولى لـkaddish for superman انطلقت، وجسدانا كانا يستجيبان للإيقاع في عبودية، وكأننا لم نكن نملك خياراً آخر. إيقاع اللحن كان إيقاع إقبالك وإدبارك، وكأن حياتك تعلقت به. وبقدر ما كنا نوغل في اللحن، بقدر ما كنتُ أتعلق بك، إلى أن انتهينا على الأرض، وأنت لا تفك عني، ولا أنا أيضاً. أظن أن لا أحد منا وقتها تفطن إلى أننا سقطنا...

لقد سقطتُ ليلتها بالشوق بين يدي رجل لم أعشقه بعد، ولكنني كنتُ أود لو أذوب فيه. وهذه بالنسبة لي مرحلة قصوى تلي الحب.

المقطوعة تدوم تحديداً ١٣ دقيقة و١٢ ثانية. يُقال إن الوقت يمضي في رمشة عين. الثلاثة عشر دقيقة بدت لي ليلتها كساعتين. أحسب أنها كانت أكثر ربع ساعة عشتُها بامتلاء. كل ثانية كانت تدوم ثانيتين. وكنتُ أعيش الدقيقة مرّتين...

عُذراً،

لكني سأجبر نفسي على التوقف. هذا لا يُحتمل. سأصاب بالشّجن لو تابعت إلى آخره، وأنا وحيدة في هذا الليل الأميركي الوسيع. إن شيئاً مّا الآن يدعوني لفسخ كل ما كتبت، وقد بدأتُ أشك في رغبتي في أن تتطلع على هذه الأسطر. إنّني لا أنتظر إلا سواك لتكتمل أمريكاي. ألم تقل إنك ستلحقني؟ ألن تأتي؟ متى ستأتي؟

أنت الشيء الوحيد الذي سأمتلكه أبداً، من دون حاجة لأن أمتلكه فعلاً، لأني سأحُول دائماً دون امتلاكك لي.

Fuck you.



عزيزي الذي لا يرد،

سأحدثك عن شاب فرنسي التقيته أوّل من أمس. كان أسوأ شيء وقع لي منذ أن وصلت إلى لوس أنجلس. التقيته في venice beach، أحد أرواع أحياء المدينة. إنّه مكان ساحر على البحر، ستُولع به ولن تملّ ارتياده حين تأتي إلى هنا. الفرنسي الغرّ حاول مُغازلتي ببعض العبارات الفرنسية. لكنه ارتبك لمّا أجبته بلغته، وأفقدته عُنصر تفوّقه. للأسف، الأميركيون يسيل لعابهم حين يستمعون إلى اللّسان الفرنسي، الذي يعتبرونه علامة نبل ورفعة. كما أن الفرنسيين الذين هاجروا إلى هنا يُجيدون استغلال ذلك الأمر إلى أقصى حد. ظنّ للوهلة الأولى بأنني أميركية من أصل لاتيني، ثم فوجئ لمّا علم بأنني تونسية. اسمه «سيدريك»، ووجهه كاسمه، لا يوحي بشيء. لقد أصيب بنوبة قلق ما إن هبط الليل على venice beach، وأصرّ أن نغادر الحيّ حالاً. لكنني خيّرته بين السّهر هنا أو المغادرة وحيداً، فقبل البقاء على مضض.

دخلنا حانة وجلسنا لصق واجهة زجاجية ضخمة تُطلّ على رصيف الشارع الضاج بالناس. كان يرقب الداخل والخارج في توجس، ويحتسي مُتوتّراً قدح جعّة لم يُفارق يده لحظة. «سيدريك» خبير في المحاسبة، جاء إلى لوس أنجلس في مهمّة عمل تدوم ستة أشهر. قضى منها شهرين إلى حدّ الآن. قال إنّه لم يستطع التعوّد على صوت صفارات سيارات الشرطة والإسعاف التي لا تتوقف لحظة في لوس



أنجلس، وكأن البلد في حالة استنفار مُستمر، وأنه منذ أن غادر باريس إلى هنا، لم يهنأ بالنّوم ليلاً. ثمّ راح يعدّد في تذمّر الأشياء التي قدّمها على أنّها مخاطر وعيوب تشكو منها المدينة. الفرنسي كان يشتكي من ندرة النقل العمومي، ويتذمّر من المشي. يتذمّر من المشرّدين المخمورين الذين يدفعون عرباتهم ويلعنون كل شيء. يتذمّر من الشبان الذين يمتطون زلاجاتهم وتعجّ بهم الأنهج والساحات. يتذمّر من نساء الـcougars اللواتي لا أعتقد أن أيّاً منهنّ يُمكن أن تترصّد بغلاً مثله. يتذمّر من خطر اندلاع الحرائق في الغابات، وخطر حدوث تسونامي، وخطر أسماك القرش، وخطر الوقوع في تبادل إطلاق نار بين عصابتين، أو بين يدي سفاح. يتذمّر من وجود السناجب في كل مكان، ووجود الأفاعي ذوات الأجراس. يتذمّر من دويّ إطلاق الرصاص ليلاً، من السّرقة، من إمكانية أن تختطفه الكائنات الفضائية... باختصار، إنّه يخشى وجه مدينة الحي، والمتوحش، والذي أظنّ أنّه أروع ما فيها. أعتقد أنّه كان ليبول في سرواله لو اطّلع على ما كنتُ أفعله به في مخيّلتي، ولم يشك لحظة في أنّه كان يُجالس أخطر شخص في لوس أنجلس.

كنّا كذلك، لمّا مرّت عجوز مُتشردة تدفع عربة على الرّصيف، لتتوقف لحظة وترمينا بنظرة مجنونة، وتلوّح نحونا بإشارات مُتشنجة، ثم قرّبت وجهها من واجهة الحانة وألصقته بزجاجها، فامّحت تغضّنات خدها لحظة، قبل أن تتراجع وتترك بصمة وجهها على البلور بفعل أنفاسها. ثم إن المرأة أخذت تدعك بسرعة الواجهة الشفافة بكمّ قميصها الخشن، مُنظفة آثار وجهها بعناية، قبل أن تتلفظ بما أظنّه كان سُباباً، وتمضي في حال سبيلها. الفرنسي كان في قمّة القرف، بينما كنتُ في غاية الانجذاب بذلك الكائن الفريد الذي مرّ للتوّ. لقد أصيب بالإحباط حين قلتُ له إنّني ما جئتُ إلى أميركا إلا لأقابل بشراً مثل هؤلاء. كانت



المرأة ترتدي خزانة من الثياب وتدفع عربة تسوّق بها متاع في الظاهر لا يصلح لشيء. قلتُ «لسيدريك» إن هذا الصّنف من الـhomeless الذين يدفعون عربات تسوّق ولا يشترون شيئاً، ولا يستهلكون، هم الأشباح الضّالة التي تقضّ مضجع الرأسمالية. إنّهم النموذج الأسمى لللامُنتِج الكوني. أفراد يعيشون على الحافة، على الهامش من كل شيء؛ وكأنهم أشباحُ مُستهلكين ماتوا وعادوا يدفعون عرباتهم الخاوية، ليُشهِدوا العالم على فشل الحُلم الأميركي الذي اختُزِل في بعده الاقتصادي، بعد أن أفرغ من أهمّ عُنصرين فيه: الحُريّة والمُغامرة. لكنّي أظنّ أن الفرنسيّ لم يعِ حرفاً من ذلك الخطاب المُعقّد الذي تعمّدتُ إلقاءه في وجهه. كنتُ أهذي أمامه وأقول كل ما يخطر ببالي. وكان ينتظر أن ننتهي من الشرب سريعاً حتى يأخذني إلى بيته ليُضاجعني. كنتُ أتعمد أن أحدثه عن كل ما يُمكن أن يثنيه عن ذلك، قبل أن أغتنم فرصة ذهابه إلى المرحاض لأدفع الحساب وأغادر.



صرتُ أقرأ رسائلها الأخيرة بلا روح. وكنتُ أشعر، وللمرّة الأولى، بأنها بعيدة عنّي فعلاً. ما إن بدأت هي تتحسس طريقها إلى أمريكاها، التي تخلت عن كل شيء لأجل العثور عليها، حتى بدأت تلك التي رعيتها في وجداني، تخبو جذوتها. لم يعد لديّ أي داع للكتابة والرد على رسائلها، أو حتّى للرحيل. الأمور هنا تأزمت بشكل بات معه التفكير في الرّحيل، إلى أي مكان، أمراً يورث الإحساس بالدُّوار، والخيانة. كُنا نأمل في أن تنجح الثورة بسرعة، وها إنها تفشل بسرعة. لم تمض غير أشهر قليلة على اقتحام وحرق السفارة الأميركية من قبل مُتدينين غاضبين، حتى جاء اغتيال الزّعيم «شكري بلعيد»، ليكون رصاصة الرحمة التي أطلقت على الثورة. كُنا دائماً متخلفين بخطوة عما يجب أن ندرك ونفعل. ها إن الثورة التي لطالما قالوا عنها إنها «بلا رأس»، تكتشف، بعد فوات الأوان، أن «بِلعيد» كان رأسها، وروحها الجسور، وقد خرج يُشيعه إلى مرقده مليون شخص أو يزيد، لم يكونوا يعرفون بأنهم فقدوا ذلك اليوم رأس ثورتهم.

كانت هُناك حالة من الإنهاك العام، والرّيبة، التي طالت كلّ ما قُمنا به إلى حدّ الآن. وتعالت هُنا وهُناك أصوات تقول إنّ الثورة تحتضر، وأخرى تقول إنّها فشلت، وأخرى تدّعي بأنّه لم تكن هناك ثورة أصلاً. وكل مّا كنتُ أحسّ به في ذلك الخضمّ، هو أن شيئاً مّا لم يعُد هُناك، شيء فذّ لا ندري متى صار عِندنا ولا متى فقدناه.



شهرُ مايو هذه السّنة كان مُختلفاً. مايو العظيم، شهرُ الرّؤى واليقظات الكِبر. شهرٌ تجدّدُ فيه طاقاتي وتُشحن قواي. نجحتُ في اجتياز الشتاء والخروج من حالة الوجوم، لكنّي لم أسترجع تماماً ذلك الدّفق الحماسي الهائل الذي خبِرته قبل سنة أو سنتين. كلّ ما نجحتُ فيه هو أنّني صرتُ ساخطاً، ومُمتلئاً بالسُّخط. إنّي لا أدري إن كان السُّخط كفيلاً بأخذي إلى أميركا. لكن لا بأس، رجل غاضب خير من رجل يائس كما يقول الأميركيون. السّخط شعور نبيل. ولولا السّخط، لما اندلعت ثورة قبل شتاءين.

في مثل هذا الشّهر، وقبل سنة، التقيتُ علياء. في سبت كهذا، ذات صباح مُتّقد، كنتُ أقبّلها للمرّة الألف قبل أن أسحب نفساً عميقاً من شعرها المشوش وأغادر بيتها نحو العمل. كنتُ في مزاج خارق قد يحتاج البشر لألف سنة أخرى من النّمو والتطوّر حتى يعرفوه. أشعر بثقة مرحة وعزم كفيل بأخذي للمرّيخ. لم تمض دقائق على وصولي لمكتبي في مُستشفى الرّازي، حتى لحقتني هناك. جاءت تكتشف المكان كما قالت. ومن حُسن حظيّ يومها أنّ القسم كان شبه فارغ ولم تكن لي مواعيد ذلك الصّباح، لأنّها انقضّت عليّ حتى قبل أن أردّ باب المكتب.

كان رُوحها الشغفُ. إنّه لا يمرّ يوم من دون أن تكتشف أو تختبر أمراً جديداً. وفي هذا الشأن، كنتُ مثلها تماماً. أذكر أنّها كانت تحكي لي كل مرّة عمّا تسمّيه «اكتشافها المذهل». وإن كان ذلك شخصاً غريباً، فيلماً، أغنية، طبق طعام، مكاناً مُلهماً أو حتى حشرة، فإنّها تُحدّثك عنه بدهشة وحماس يجعلانك تُحسّ بقوّة وفرادة ذلك الشيء. ونفس ذلك الحماس والإقبال جعلها تلتحق بالمشرحة لقضاء تربّص صيفي. لقد نجحت بوسائلها الخاصة في الحصول على تربص في أحد أقسام الطبّ الشرعيّ، رغم أنها طالبة علم نفس. كُنتُ أحظى يومياً بتقارير مُفصلة من



المشرحة. لم أر في حياتي شخصاً يتقافز من الفرح والحماس بعد أن قضى خمس ساعات في المشرحة بين الجُثث، خاصة، بعد أن سُمح له بأن يزن القلوب والأكباد والأدمغة، وتُرك يسحب المصارين، في صبر، ولوقت طويل، من بطون أصحابها. تلك الأيام، كانت ولِعة بطبيب شرعيّ شابّ، قالت لي إنّها تأكّدت من نبوغه ورهافة عمله، حتى قبل أن يُباشر أمامها أي جثة. وقد أيقنتْ من ذلك بمجرّد أن لمحتْ خالاً مُميّزاً على ظاهر كفّه اليُسرى. كان حدسها لا يُخطئ ولم يكن يفوتها شيء. ولم أرَ مثلها إنساناً منذوراً للصدف الرّائعة والتجارب والاكتشافات. كانت شخصاً لا نرغب في الحصول عليه بقدر ما نرغب في بلوغه ومرافقته. والآن، بعد مُضيّ أشهر على رحيلها، أقول إنّه ربّما كانت هي أميركا التي كنتُ أبحثُ عنها، أو أميركا التي صرتُ أرغب في الرّحيل إليها، بمجرّد أن افترقنا. فطوال الأشهر الثلاثة التي قضيناها معاً، لم أكن مُحتاجاً للذهاب لأي مكان. كانت هي *أميركا* تُشرق عليّ كلّ يوم بشعرها الفاتح كفجر وعينيها اللتين تعِدان بالمُستحيل.



علياء،

لقد تأخرتُ كثيراً في الرّد على رسائلك رغم أنّني حاولتُ أكثر من مرة أن أكتب إليك. أقولها صراحة، لقد كنتُ يائساً من كل شيء، ومن أميركا خاصة، بعد كل ما حدث هنا في الفترة الأخيرة. لقد كنتُ حتى أيام قليلة لا أفهم أميركا، وأكره أميركا، بعد أن صارت شيئاً عصيّاً على الفهم. لكنك كُنتِ من دون أن تشعري تُنقذين أمريكاي، فقد استطعتُ بفضل رسائلك أن أرعى رابطاً خفياً بيني وبين تلك «الأميركا» التي لطالما حلمتُ بها. لو تعلمين كم أود الآن أن أكون رفيق *ليلك الأميركي الوسيع*. أعتقد أننا ذات يوم كنا نحن أنفسنا أميركا، قبل أن نفترق ويمضي كلانا للبحث عنها. إنّ حدسي يقول لي إنّني سألقاها حين ألقاك. وعلّه كان من الضروري أن نفترق حتى تتمكن هي من الظهور والبزوغ بيننا. إنّها تُشبه الرابط الغامض الذي سأسمّيه الثّقة، إلى حين أعثر على مُصطلح أكثر تعبيراً. إنّني واثق من أنّها موجودة، فقد استعطتُ أكثر من مرة أن أرى انعكاسها في عينيك. وواثق أيضاً بأنني خبِرتُ جانباً منها، حتى وإن كان ذلك ليس سوى أدب. ويبقى أروع ما فيها هو ذلك الجانب المخفي المستحيل عن كل حُلم ورؤيا. إنّه كل ما لم أعرف ولن أعرف ما دمتُ لم أخاطر بالذهاب إليه، وإن كنتُ على ثقة بأنني إن رُحتُ إليه يوماً، لن أرجع أبداً.

لطالما كنتُ أتحامل على أميركا في الأيام السابقة. لقد ساورني



الشكّ أكثر من مرّة في حبّي لها. لكنّ ثقتي فيها سرعان ما عادت، ويعود الفضل لك في ذلك. لكن هذا لن يمنعني من أن أوجّه لها عتاباً خفيفاً، كما يمكن أن يفعل كلّ مُحبّ صادق. وهذه كلمة، علياء، بلّغيها إلى أميركا.

«أميركا! أينما حلّت جيوشكِ وحلّ عُملاؤك حلّ الخراب. أميركا! تيسّرين وصول الإسلاميين للسلطة في دول *الرّبيع الأسود*. تُحاربين تنظيم القاعدة في أفغانستان ومالي وتدعمينه لإسقاط النظام في سوريا. أميركا! تسعين لإسقاط النظام الإسلامي في إيران وتدعمين نظاماً إسلامياً آخر في المملكة العربية السعودية. أميركا! أميركا! أميركا! قولي لي ماذا تُريدين؟ تصيبيني بالدوار. أنت صُداع رأس. صرتُ أشك في حبّي لك. وكله بسببك. لكني لا أشكّ لحظة في أنّي أعشق شعرك الأصفر المصبوغ والعلكة المستهلكة التي لا تُفارق فمك. فلماذا عدتِ لا تُشبهين لحية «واتمان» الجميلة؟ إنّي أخشى من أن يخيب ظني فيكِ. أفضّل ألا أروح إليك على أن أروح إليك ولا أعثر عليك. بيني وبينك سيّارتي التي لا بد أن أصلحها وأبيعها وأقبض ثمنها لأشتري تذكرة طائرة. فهل تستأهلين المُخاطرة؟ أميركا! ليست لي براميل نفط، فهل ستفتحين لي ساقيك الطويلتين البيضاوين؟ لن تري منّي دولاراً واحداً يا قحبتي السّماويّة. ولن أجعل منك قدّيسة. لكني مُستعدّ لأن أدفع ثمن الغداء إن كُنتِ جائعة. أميركا! إن روحي من روحكِ حتى *ليخطر لي أنّني أنا الآخر أميركا*. أنا يائس مثلك، وخائن مثلك، ومهووس مثلك، فعانقيني حبيبتي. عانقيني وأغمضي عينيكِ».



علياء حبيبتي،

أعتقد بأنني عثرتُ أخيراً على الطريق إلى أميركا.

إنّه أعظم اكتشاف قُمت به منذ مدة. سأحكي لك اليوم عن ملحمة. على المرء أن يذهب إلى أميركا غازياً، أن يزحف عليها مثلما زحف حنبعل على روما.

سأحكي لك اليوم عن سمكة أسطورية ألهمتني السّبيل إلى أميركا. إنّه الشبّوط الآسيوي العظيم. هذه السمكة أعظمُ خطراً على أميركا من كل الجيوش العربية مُجتمعة. لقد جيء بها من آسيا إلى أميركا للعمل في بداية السبعينيات، مثلما جيء قبل قُرون بالعبيد السُّود من أفريقيا. جُلبت من الصّين للقضاء على العوالق والطحالب في مزارع تربية الأسماك بنهر «الميسيسبي». لكن مع فيضان النهر في بداية التسعينيات، تمكنت هذه السمكة من الهروب من الخزانات، وهذا راجع كذلك لقدرتها الخارقة على القفز عالياً خارج الماء.

لأكثر من عشرين عاماً ظلت السمكة الآبقة تتكاثر وتشق طريقها سبْحاً ضد التيّار، لتنتشر في أنهر «ايلينوي» «وميسوري»، وتطرق مؤخراً أبواب البحيرات العظمى. إن لها روح الفاتحين العظام في اندفاعها المُستميت إلى الأمام؛ إنها لوباء لا شيء يوقفه. لقد بلغ طولها ووزنها في أميركا أحجاماً قياسية لم تعرفها في آسيا. إن لها روحاً أمريكية صِرفاً. فهي تلتهم في يوم واحد من الغذاء ما يُضاهي رُبع وزنها، وهي بذلك



تحرم الأصناف المحلية من الأسماك من مصدر غذائها. أميركا هي موطنها الأصلي وإن جاءت من آسيا، ومن الغباء الاعتقاد بأن وجودها هناك كان خطأً أو حادثاً. أمريكية هي حتى النخاع، رغم أنها تُعرّض أصناف الأسماك الأخرى إلى خطر الانقراض. لقد وجَدتْ في أميركا من سُبل النّمو والتكاثر ما لم تجده في آسيا. وهذه هي أميركا التي أبحث عنها؛ أميركا الأرض الخصب المستعدة لاحتضان كل الشطط والطموح والجنون.

لقد أظهرت هذه السمكة قدرة خارقة على احتمال درجات حرارة متدنية جداً وأخرى مرتفعة، وأظهرت كذلك قدرة على العيش في مياه تفتقر للأكسيجين. أما سلاحها الأعظم، فهو بالتأكيد، قدرتها الرهيبة على التكاثر والاجتياح. إنها تتواجد الآن بالآلاف، بل بالملايين، وتوشك أسرابها على اجتياح بُحيرة «متشيغان» من ثم الانتشار في أرجاء البحيرات العظمى، مما يعني انهيار النظام البيئي، والنظام الاقتصادي للمنطقة.

لقد حاولوا مجابهتها بكل السبل لكنهم فشلوا. وضعوا سياجاً كهربائياً تحت المياه في خطوة أولى، ثم سمّموها، إلى أن بلغ بهم الأمر استحداث مشروع يقضي بإغلاق ممرات الملاحة لإيقاف تقدمها نحو الشمال، لكن كل جهودهم باءت بالفشل. إنّها حتى أقوى من رأس المال، وقد حاولوا الالتفاف عليها واحتواءها من ذلك الجانب. فرغم أن هذه الأسماك محببة المذاق لدى الصينين، فإن الأميركيين لا يحبذونها في أطباقهم، لوجود عظام رقيقة بين طيات لحمها. إن تسويقها محلّياً أمرٌ باء بالفشل، كما أن تصديرها وشحنها للصين أمر مُكلفٌ جداً، وشبه مُستحيل. وبالرغم من ذلك فقد واصل الأميركيون اصطيادها بكميات هائلة قصد تحويلها إلى سماد عضوي، إلا أن ذلك لم يكن



كافياً للحدّ من تكاثرها. إنها *إنتاج* أقوى من الإنتاج. لقد تفاقمت وطغت لتغمر الإنتاج ورأس المال، رافعة شعاراً واحداً: «دعه يعمل دعه يمر». إنّي لا يُمكن أن أصف الجذل والحماس الذي اجتاحني وأنا أشاهد وثائقياً حول هذه السّمكة. لقد وصل منها إلى أميركا أربعة أنواع، لكن أكثرها إبهاراً على الإطلاق يبقى الشبّوط الفضّي. إنّه يملك قدرة خارقة على القفز خارج الماء عند سماعه الذبذبات الصادرة عن القوارب المارّة من المكان، فترى سطح البحيرة يأخذ في الغليان كقدر الفشار، بمجرّد أن تبدأ آلاف الشبوطات الفضية في الهيجان والتواثب بعُنف. الأمر أعظم من أن يوصف. كنتُ أقول إن هذه السمكة وجدت في مُسطحات أميركا موطناً أصليّاً، وهذا هو الدرس الذي يجب أن نتعلمه منها.

أميركا كانت بالأمس أيرلندية، وهي اليوم أفريقية بعد وصول «أوباما» للرئاسة، وعلها تصير صينية عمّا قريب، أو هنديّة. إن أميركا هي تلك الأرض العذراء دائماً؛ أفق رحب للحالمين والهاربين الأبديين. يجب أن نتوقف عن مُحاربتها. قدرُنا كلنا أن نصير أميركيين. إننا لن نُخضع أميركا إلا بخضوعنا إليها.

قِطَعُ «كريبتونيت» ناجية ستنقذف حتماً من أرجاء سُوريا المنهارة اليوم، لتلحق بقطع من العراق المُنفجر والملقاة أشلاؤه على الدنيا. أشلاءٌ ورمادٌ سيسقط بعضها على عراءات أميركا، لتكون نواة لبابل الجديدة وللشام الجديد.

إنّني اليوم وأكثر من أي وقت مضى أرغب في الذهاب إلى أميركا. سأروح إليها عوماً وقفزاً لو لزم الأمر، مثل شبّوط فضّي يندفع بسهام الشوق خارج الماء ليتوهج في لهيب الشمس. إنّها أرض لم تطأها بعدُ قدم إله أو شيطان، يفقدُ البشرُ ذاكرتهم بمُجرّد أن يخطوا فوقها



خطواتهم الأولى، ويجدون فيها ما يُغنيهم عن حمل حطام معابدهم المهدمة وأنفسهم القديمة. أميركا هذه قد تكون في أميركا، في أستراليا، أو حتى على المرّيخ. إنّي أكاد أراها، وأرى البشر يطيرون فوقها وقد نبتت لهم أجنحة، أو يسبحون تحت محيطاتها بعد أن نبتت لهم زعانف وحراشف. وعله لم يبق لي اليوم غير المخاطرة بالبحث عنها.



عزيزي أيمن،

أتوقع أنك ستفهمني أكثر من أي كان بعد أن اطّلعتُ على رسالتك الأخيرة. أنا الآن مُقبلة على مُغامرة لم أحسب لها حساباً. ستفهمني حتماً حين سأقول لك بإنّني أعتقد بأنّ أميركا موجودة في اليابان. على الأقل هذا ما سأحاول التثبت منه بعد أيّام قليلة.

إليك الأمر. قبل شهر ونصف تعرّفتُ على «سْتان». شاب أميركي من أصل ياباني. إنّه أستاذ الإنكليزية الذي يُدرّسني في الجامعة. لم أكن أتخيّل قبل أشهر من الآن بأنني سأصير على علاقة بأستاذي. أنت تعلم أن هذا النوع من العلاقات محرّم هنا. لكن ذلك ما حصل. أذكر أنّني حدّثتك في إحدى الرسائل عن العُدوانيّة التي يُثيرها لديّ اليابانيون. لكن «سْتان» مُختلف، ويثير شغفي. إنّه نصف أميركي ونصف ياباني، رغم ملامحه الآسيوية المميزة. هو من عائلة يابانية هاجرت إلى أميركا قبل مائتي سنة. ورغم أنّه لم يُسافر إلى اليابان أبداً فقد اكتشفتُ بأنّه ظلّ يُحافظ على علاقة متينة بأصوله.

إنّني لا أفهم إلى حدّ الآن كيف استطعنا أن نرتبط، فهو شخص ميال للانطواء ولا يحب لفت الأنظار. لكنّني اكتشفتُ لديه نزوعاً نحو اختبار أشياء غريبة وجديدة. أعتقد بأننا نتشابه في هذا الأمر رغم اختلافاتنا العديدة. وربما هذا ما جعلنا نلتقي.

منذ قليل حصلتُ على تذكرتي إلى اليابان. سأروح معه إلى هناك



لقضاء شهر كامل. لا أعرف ماذا ينتظرني في ذلك البلد ولا ماذا يُمكن أن يحدث لي. لكنني أشعر برغبة قصوى في السفر إلى هناك. لقد توصلت بصعوبة إلى إقناعه. لطالما كان يؤجل الأمر. إنّه يخشى بألا يرجع إلى أميركا أبداً لو جرّب العودة إلى أرض أجداده.

لقد أسرّ لي بأنّه لما كان صغيراً كان يحلم بأن يصير مُغنّي «رُوك» شهيراً، فيذهب يوماً ما إلى اليابان لتقديم حفل هناك. لكن هل تتصور بأنّه يخجل من حلمه ذاك، ومن رد فعل والديه تُجاه الأمر؟ لطالما كان يخجل من أن يصير مغنّياً. إنّ له علاقة جافة ومحيّرة بوالديه. لكنني أدركتُ بأن تلك سمة تميّز اليابانيين. هل تتصوّر بأنّ الآباء لا يُقبّلون أبناءهم.

أعتقد أنني بفضل «سْتان» بدأتُ أكوّن فكرة لا بأس بها عن الثقافة اليابانية وصرت أفهم أفضل من قبل دواعي العدوانية التي يُثيرونها لدي. إن خجله وهدوءه لم يمنعاني من اكتشاف البركان الذي بداخله. وهذه سمة فهمتُ بأنها تخص كذلك بقية اليابانيين. إنّهم أشخاص هادئون ومنضبطون لكن ما إن يفقدوا السيطرة على أنفسهم حتى يتحولوا إلى كائنات على درجة عالية من العنف والتدمير. لكنه عُنف مُختلف. عُنف لا علاقة له بالتاريخ وجذوره مُختلفة عن جذور العنف الذي نعرفه لدينا.

إنها فرضيّة لم تكتمل بعد، لكنني أعتقد بأن العنف الذي يحتوي عليه الإنسان الياباني أمر مُرتبط بالجغرافيا وبالأرض. هل تتصور شعباً عاش لقرون وقرون فوق فوهة بركان، وشيد حضارته فوق أرض لا تكف لحظة عن الارتجاج. إنّهم مُجبرون على الثبات والتحكم في كل شيء. فالعيش في ظروف مماثلة أمر يتطلب قدرة تحكم نفسي وتقني هائلتين. لذا يبدو لنا اليابانيون مثل روبوتات أو كائنات مُبرمجة. لكنهم



حين يفقدون السيطرة على أنفسهم ينفجرون بكل الشطط والعنف الكامن تحت أقدامهم. ولو لم يكن اليابانيون متعودين على الكوارث لما استطاعوا النهوض بعد قصفهم بقنبلتين نوويتين. لقد باتوا يستأثرون الآن بكل شغفي. إني أريد أن أفهم سرّ قوّتهم، وأعتقد بأن عليّ أن أروح لليابان حتى أختبرها عن قرب. سأحدثك عن كل ذلك لمّا أرجع من هناك.

هناك أمر آخر مُفرح لا بدّ أن أخبرك به. لقد تمّ قبولي في جامعة U.C.L.A لدراسة الـForensic Psychology بعد أن حصّلتُ على شهادة إجادة للغة الإنكليزية تأهلني للالتحاق بأي جامعية أميركية. قد أعود لدراسة ذلك بعد عودتي من اليابان. أقول «قد» لأنني غير مُتأكدة مما يُمكن أن أعثر عليه هناك. أمّا في ما يخصّك، فإنّني أعتقد بأنّه قد حان الوقت لكي تجيء إلى أميركا وتكف عن الهذيان بها. عليك الآن أن تُجرّب ذلك. من يدري، فقد لا تعثر عليها. أو قد تعثر على الهند أو على أي شيء آخر.

لكن هيّا، لقد حان الوقت.

إلى اللقاء.

علياء



كنتُ قد حسمتُ أمري وقررت إصلاح سيارتي لأتمكن من بيعها بأعلى سعر ممكن وأرحل بثمنها إلى أميركا. وكنتُ على استعداد لترك كل شيء هنا لأجل البقاء معها هناك. لكن رسالتها التي وصلتني ليلة أمس جعلتني أصاب بخيبة بالغة. كان جانب مهم من شوقي نحو أميركا مُتعلّقاً بها. لقد صارت جزءاً من أميركا التي أحلمُ بها وأحلم بالعيش فيها. وها إن جانباً من حُلمي قد انفصل عن أصله بعد أن قررت هي الرحيل إلى اليابان. إن أروع مّا في الأمر هو أنني لا أستطيع أن أمنعها من ذلك. كما أنها لا تُدين لي بشيء بالرّغم من أن جانباً من أمريكاي قد تشكل حولها. يبدو أننا قد بلغنا الآن من الحُلم شوطاً يقتضي فيه حُلمانا الانفصال، ليعيش الحُلم.

لطالما كنتُ أعتقد بأن العيش في أميركا أمر يحتاج إلى *الرّفقة*. إنّني لا أتصوّر أميركا من دون رفقة. إنّها هائلة، ضاجّة، ومُتشعبة. وإن لم تكن للمرء رفقة متينة يُعوّل عليها هناك فقد يضيع ويتيه كهباءة لا وزن لها. هذا ما كنتُ أعتقده وما تبيّن لي من رسائلها الأخيرة، قبل أن تذهب هي مع رفيقها الجديد إلى أمريكاها البديلة، وتذهب معها أمريكاي أدراج الرياح.

بأقدام مُتثاقلة ذهبتُ أستردّ سيّارتي من ورشة الإصلاح. أوقفت تكسي ورحتُ لآخذها بعد أن قضت يومين هناك. سيحتاج الأمر ساعة أخرى على الأقل، قال لي الميكانيكي ودعاني للاستراحة في أحد مقاهي



الجوار، ريثما يُحكم إغلاق دواليب السيارة. كنتُ في حي التضامن آن ذاك، أما ذهني فقد كان شارداً بعيداً، مُنشغلاً بأميركاي المطعونة. أميركا قارّتي المثقوبة التي كانت تغرق وتضيع في قلب المُحيط بعد أن فقدتُ منها الرّفقة.

كان الطقس حاراً جدّاً وكانت هناك ريح بذيئة ترفع الغبار وتلقي به في وجهي ليغلق بلحمي المُتعرق، ويورثني رغبة قاهرة في سلخ جلدي وتمزيقه. مشيتُ من دون وجهة مُحددة في شارع تكثر على جانبيه ورشات النجارة والخِراطة ومستودعات الخُردة والمطالة، وغيرها من المحلات. كنتُ آمل في العثور عن مقهى في قلب ذلك الحي الوسخ والمسكون بالضجيج. كان شارع العذاب ممدوداً إلى ما لا نهاية. ولم أكن أتخيّل أن في ذلك الحيّ الشعبي شارعاً مُرعباً مثل ذاك. بغتة ساورني يقين عبثي بأنني سأصل إلى أميركا لو نجحتُ في الوصول إلى آخر ذلك الشارع. أحسستُ بأنها قريبة جدّاً. إنّها حولي، صرتُ أشعر بها في كل مكان. هرولتُ مُسرعاً كالمهووس. إنّها هُناك، حتماً، في انتظاري. في نهاية هذا الشارع الصّدئ الطويل. عمّا قليل سأسمع أحدهم يتكلم بالأميركية وسأتأكد بأنني وصلت. طلع عليّ بغتة من إحدى ورشات صقل الرّخام فتى في هيأة مُرعبة. كانت بشرته الغامقة مكسوّة بطبقة كثيفة من الغبار الأبيض. شعرتُ بالرّهبة وأنا أرى سحنته المزرية وشعره المغبرّ. كان يبدو كشيطان جائع ومُرهق. حدسي كان يقول لي بأن أتبعه. وعلى غرار «أليس»، رحتُ أتبع الأرنب الأبيض عسى أن يأخذني إلى بلاد العجائب. كنتُ واثقاً من أن الفتى المُمتقع سيُباغتني ويقفز في حُفرة أو شيء مُشابه. بِتُّ قاب قوسين أو أدنى من الوصول إلى أميركا. وقفتُ لحظة أنتظر الفتى أمام أحد متاجر بيع المواد الغذائية. أعدّ له البائع في الدّاخل سندويتش هزيلاً مطلياً بالهريسة ومحشواً بقطع السّردين



المُفتتة. التهم الأرنب وجبته هناك في صمت ثم غادر. سرتُ وراءه في خفية. أتوقع أن يفعلها في أية لحظة. هيّا أيتها اللعين أرشدني إلى أميركا. أعلم أنها في هذه الأنحاء. أرشدني إلى بئر أسقط فيها أو بالوعة تفتح على الجهة الأخرى من الكوكب.

سرتُ خلفه في عزم. اقتربتُ منه قدر الإمكان من دون أن أثير شكوكه. إلى أين تأخذني أيتها الشبح المُرعب؟ هل هذا وقتُ قهوتك؟ قلتُ والفتى يدخل مقهى رثّاً كانت لافتته لا تكاد تُرى بعد أن امّحى طلاؤها. لحقته داخل ذلك الغار الغائم والرّطب. كانت الإضاءة بالداخل ضعيفة جداً رغم أن الشمس في الخارج تكشف كل شيء إلى حد العمى. خلتُ أنني ضيّعته وبصري يجد صعوبة في التلاؤم مع الجو الناعس. لكنّ الأرنب الأبيض كان واقفاً عند الكونتوار يطلب شيئاً من النادل. أخذ المغبرّ زجاجة «فانتا» وجلس يرتشفها على مهل عند إحدى الطاولات بعد أن أشعل سيجارة. جلستُ بدوري عند طاولة قريبة وبقيتُ أتلصص عليه. إن كُنتَ تعتقد بأنك ستُفلت فأنت واهم. سأتبعك حتى داخل المرحاض. أعلم أنك تعلم. أعلم أنّك تعرف الطريق إليها. ستقودني أيتها الأرنب الأبيض. ستأخذني إليها الآن بعد أن عثرتُ عليك.

كان هواء المقهى مشحوناً بدخان التبغ والشيشة رغم أن عدد الروّاد لم يكن يتجاوز العشرة أشخاص. شعرتُ بالاختناق داخل ذلك الجُحر الذي لم تكن به أية نافذة أو فتحة عدا الباب. من فكّر في طلاء الجدران بهذا اللون البنّي المُقرف؟ يا للعذاب. كنتُ أنزف عرقاً بعد أن جفّ حلقي. انتظرتُ أن يأتي النادل ليطلب مني ماذا سأشرب. لكنه لم يفعل. بقي جالساً وراء الكونتوار يُعبث في فتور بهاتفه المحمول.



الأرنب الأبيض يُدخن في شراهة ويرتشف الفانتا. بغتة تفطنتُ إلى أن جميع من بالمقهى، من دون استثناء، كانوا يشربون الفانتا. كان ذلك مُحيّراً. لماذا الفانتا بالذات؟ هل يكونون بصدد تدخين الحشيش؟ أعلم أنّ تلك عادة محببة لدى الأشخاص الذين يستهلكون الحشيش. لكنني أعرف رائحة الحشيش وأستطيع تمييزها. أستطيع أن أؤكِد بالرغم من كل العَطن الذي استنشقته بأن هذا المكان خال تماماً من رائحة الحشيش. بقي لغز الفانتا يشغلني. لماذا لا أحد يشرب القهوة أو حتى الكوكاكولا مثلاً؟ في الأثناء دخل رجلان توجها مُباشرة نحو النادل ليأخذا قارورتي فانتا وجلسا بدورهما إلى إحدى الطاولات. هل يُمقل أن يكون الأمر مُصادفة. لكن ماذا لو كان هذا المقهى مقرّاً لعصابة تحترف بيع الحشيش. هذا قد يُفسّر لغز الفانتا. إنّها كلمة السّر. حيلة ذكيّة لكشف المُخبرين والمندسّين. كل من يدخل المقهى ولا يأخذ فانتا فهو ليس منهم. إنّه شخص دخيل لا بدّ أن يحذروا منه. قمتُ من مقعدي وتوجهتُ نحو النادل في ثقة وطلبتُ فانتا أنا الآخر. لا بدّ أن أجرّبها على غرارهم حتى لا أثير الشّبهات. إنّي لا أعرف ماذا يُمكن أن يحدث لي لو طلبتُ شيئاً مُخالفاً. قد يسحب أحدهم مُسدساً ويُطلق الرصاص على رأسي.

«Thank you sir»، قلتُ ودفعت ثمن الزجاجة والنادل ينزع عنها الغطاء ويضعها أمامي متطلعاً إلى عيني في سوء فهم. رفعتُ الزجاجة بلهفة وأخذتُ منها جُرعة كبيرة. كان السائل الأرجواني المُشِع حلواً ومُنعشاً. لم أشعر في حياتي بلذة احتساء زجاجة فانتا مثلما كان الأمر تلك اللحظة. كانت مَسْحَة الفرح الوحيدة في ذلك الرّكن القذر من العالم. ثمّ إن تفسيراً آخر للغز الزجاجة المشعشعة لمع في ذهني. كان ذلك بديهياً. الفانتا هي الفرح. إنّها الشيء الوحيد المُشرق في هذه الحُفرة



المنسية. كيف لم أدرك ذلك منذ البداية. لا بدّ من الفانتا لكسر كل ذلك السّواد. الكوكاكولا والقهوة لا يُمكن إلا أن تزيدا في غمّة هذا المكان. لذا لا بدّ من شيء حلو وفاقع اللون. لا بدّ أن تكون هناك فانتا حتى لا ينتحر هؤلاء القوم الملاعين.

«الأرنب الأبيض»، هتفتُ بغتة كالملدوغ، والتفت خلفي بعد أن غفلتُ عن الفتى لحظة وانشغلتُ بلغز الفانتا. كانت زجاجته الفارغة هُناك على الطاولة، أما هو فقد اختفى. عند ذلك انخرطتُ في ضحك جنوني جعل جميع الأنظار تتجه نحوي. واصلت ضحكي من دون أن أحفل بشيء. ورغم أنّني قد ضيّعتُ أرنبي الأبيض مرّة أخرى، فقد كنتُ واثقاً من أنّ أمريكا موجودة حتماً في مكان مّا.



الشّمس تُشرق مِن القَيء

صحن الكفتاجي المقرف الذي التهمته نصف نائم، الثالثة فجراً، بعد مغادرة الحانة، حوّلني إلى موزع آلي للبراز. إسهال حاد لازمني ليومين؛ كنت أخرأ بلا توقف. لا أدري إن كان بيضاً فاسداً، أو زيت قلي قديماً، ومحترقاً، هو الذي عبث ببطني، لكني على يقين من أن الهريسة الحارّة التي غطت «تسطيرة» الكفتاجي أثارت قرح معدتي وأصابتني بإحساس بالغثيان، تزامن مع كل صعود لمحتوى معدتي إلى حلقي. مع ذلك لم أتقيأ. ولو تقيأت لكان أفضل. ربما ذهب ذلك بإحساس الغثيان المتواصل.

الساعة تشير إلى قرابة الحادية عشرة ليلاً. مضى نصف يوم منذ أن دخلت المرحاض آخر مرّة. بدأت أشفى من الإسهال على ما أظن. لكني الآن أشعر بغلمة غريبة. كلما داهمتني الرغبة في دخول المرحاض كان أيري ينتعظ بقوّة. هل سبق لأحدكم أن تبرز بأير منتصب؟ أنا فعلت ذلك. ليس أمراً سيئاً، لكنه غريب.

فتحت الكومبيوتر ودخلت على صفحتي على الفايسبوك. مائة واثنان من أصدقائي كانوا على الخط ساهرين. أطلقت بطني فجاءة صوتاً طويلاً عجيباً وانتعظ أيري. يا ربي! ما هذا العبث؟ لم أكن أعرف إن كنت أرغب في التبرّز أم المضاجعة. اختلط الأمر على بدني. رحت إلى



المرحاض. أنزلت سروالي وأقعيت. لم ينزل شيء وأيري ازداد حجماً. أكاد أقسم بأنّه أطول من المعتاد بسنتمترين أو ثلاثة. صار أمره مُزعجاً وثقيلاً. قبضت عليه وقد استحال وضعه داخل المرحاض، ثم أرحته على الحافة وقد جاوزها مشرفاً مُطلاً على الأرضية، وبقيت أفكر في ما أرغب فيه فعلاً: التبرّز أم المضاجعة؟! ثمّ إن مشهداً حضرني وأنا عالق في وضع المُفكّر ذاك. تذكّرت شحاذاً عثرتُ في قدمه قبل يومين وقد كدتُ انكبّ على وجهي. إلا أنّي اعتذرت له ووهبته كل ما بقي في جيبي من صرف ومضيت من دون أن أجرؤ على رفع عيني في وجهه من شدّة الخجل. أذكر بأنه كان دائماً ما يفترش نفس الرّصيف قرب باب الحانة ولا يظهر هناك إلا في الليل. الغريب أنّي عثرت فيه مرّتين خلال سنتين. حدث ذلك أول مرّة ولم تمض بعد غير أسابيع قليلة على اندلاع الثورة. أذكر بأني كنتُ ثملاً ومُنفعلاً وقد وأشبعته ركلاً ولوماً. لم أكن أفهم آنذاك كيف لم يهرع بعد أمثال ذلك الرجل البائس للاستيلاء على بيوت وممتلكات لصوص النظام السابق. أعترف بأني كنتُ ساذجاً. لأني الآن، بعد أن فشلت الثورة، وعادت الأمور لما كانت عليه، أقول إنّ ذلك الرجل كان على حق حين لم «يتحلحز» من مكانه. وأنّه كان واحداً من النُبهاء القلائل الذين فهموا اللعبة منذ البداية وفضّلوا الاحتفاظ بمواقعهم على أن يُغامروا بالتحرّك ويرجعوا بجيوب فارغة.

مكثت في المرحاض لربع ساعة تقريباً من دون أن أعرف لماذا خطر أمر ذلك الشحّاذ ببالي. تُرى هل من علاقة بين قعوده في مكانه ثابتاً وبين هذا الانتصاب الفوضوي الذي يُمكن أن يكون الأخير، كالذي يأتي ساعة الاحتضار؟ لكن الإجابة وردت على لسان بطني في شكل تغريدة طويلة، من دون أن ينزل شيء. يبدو أني أتيت على كل احتياطي البراز الذي كان فيها. ثم تذكرت أني لم آكل شيئاً منذ ليل أمس، عدا



شرب الماء، وبعض الخبز حمّصته هذا الصباح قبل الذهاب إلى العمل وأكلته مع ما تبقى في الثلاجة من مربّى السفرجل.

خلعت ثيابي في المرحاض وغادرت إلا من شورت قصير تحول إلى خيمة بفعل السّارية المنتصبة داخله. رحت إلى المطبخ. الثلاجة شبه فارغة. كان ذلك مفزعاً. لكن الدرج السفلي الممتلئ بعلب الجعّة جعلني أشعر بالارتياح. أخذت واحدة فتحتها ونلتُ منها جرعة كبيرة ثم عدت أمام الفايسبوك. ستكون خسارة لو يذهب هذا الانتصاب سدى. ألقيت نظرة على خيمتي الممشوقة ثم ألقيت صنارتي في الفايسبوك.

هناك أكثر من ثلاثة مليارات من النساء في هذا العالم، لي منهن قرابة الألف، صديقات افتراضيات، مع ما يُناهز الثمانين على الخط. المؤكد أن واحدة منهن، على الأقل، لها الآن نفس غلمتي. كانت ليلة إثنين، جرّبت حظي مع فتاتين، رفضتا. الأولى بتعلّة الحيض، والثانية لأن الوقت متأخر، وقد التحقت بوظيفة جديدة، وتخشى ألا تستيقظ باكراً غداً صباحاً، فتُطرد وهي بعد في فترة تجريب. الفتاتان اعتذرتا بلباقة وانصرفتا للنوم. كنت متفهماً، فلم ألحّ. في السابق قضينا أوقاتاً ممتعة. لم أشأ أن أخسر أياً منهنّ.

أشعر أن أيري يحدجني في عتاب من تحت الشورت، لا بد أن أجد له حلاًّ. عدت أدقق في قائمة من هنّ على الخط. هناك واحدة مستعدة لمغامرة ليلية، لكنها تسكن في ضاحية المرسى. كان عليّ أن أروح إليها ثم أعود معها إلى بيتي في قلب العاصمة. بُعد المسافة جعلني أتخاذل. أربعون كيلومتراً بين ذهاب وإياب. ثم أربعون أخرى لأرجعها إلى بيتها وأعود لبيتي. هذا كثير. حتى أيري سيتفهم الأمر. ما تبقى لي من وقود بالسيارة لا يكاد يكفي لأخذي إلى المستشفى للعمل غداً صباحاً. أمّا



رصيدي البنكي فتحت الصفر، وما يزال أمامي أسبوع كامل قبل موعد صرف مرتّبي المُقبل. اعتذرت لها بتهذيب، على أمل أن نلتقي آخر الشهر، حين أقبض مرتّبي.

شربت جعّة أخرى وعدت للعمل على الفايسبوك. يا إلهي! ما لحظي سيئ بهذا الشكل؟ حتى أيري كان يتضرّع. ألا توجد في هذا الليل فتاة تسكن في الجوار، وترغب في المضاجعة عن طيب خاطر، فتاة غير مُكلفة؟! الساعة قاربت الواحدة صباحاً. يبدو أن أيري مصرّ على الانتصاب، ومصاب بالأرق. جرّبت الدخول للمرحاض مرّتين أخريين. لم ينزل شيء. أعتقد أني شفيت تماماً من الإسهال. بقي أن أعالج هذا الانتصاب والإحساس بالغثيان. يجب أن أتوقف كذلك عن الشرب، منذ الظهر وأنا أشرب. مثانتي امتلأت، والبول بأير منتصب كان أمراً صعباً ومؤلماً. عدت للفايسبوك في محاولة أخرى. أين فتاتي؟ أين محظوظة الفرج التي ستفوز بهذه السارية الرومانية. كان هناك عرض من صديقتي الكندية ـ سيندي ـ اقترحت أن ننتقل إلى «سكايب»، ونفتح كاميرا الواب، ليستمني كل منّا على الآخر. سيندي، ذات البظر المنتعظ دوماً، جاءتني من كندا قبل أربع سنوات لنُمضي معاً أسبوعاً رائعاً. لكني الآن أحتاج إلى فرج حقيقي. كل فروج العالم الرقمية ما كانت لتضاهي حرارة فرج حقيقي، ضيّق، ودافئ. لم أكن مستعداً للتضحية بانتصاب كهذا في استمناء عابر ـ وإن كانت سيندي على استعداد لإقحام الكاميرا في فرجها نزولاً عند رغبتي ـ لذا صرفتها ومضيت أفتش عن فتاة أخرى.

اسمٌ جديد لاح على قائمة أصدقائي للحظات، ثم اختفى قبل أن أنقر عليه. هل؟ يا ترى؟ عادت للظهور بعد دقيقتين. كانت تسكن غير بعيد عن بيتي. نحن أصدقاء على الفايسبوك منذ مدّة، التقيتها فعلاً لمرّة واحدة، السنة الماضية. لم أشأ الصعود معها إلى بيتي حين علمت أنها



عذراء. اكتفت بمصّي في باركينغ العمارة وأوصلتها إلى بيتها. لا أحب العذراوات. مضاجعتهن تتطلب كثيراً من الجهد والصبر. وأنا لم أكن شخصاً يطيق المهادنة والانتظار. عرفت عذراوات كثيرات كنّ مستعدات لفقد بكاراتهن، الشرط الوحيد هو أن أظهر لهن بعض الحب، القليل منه فقط. أذكر أني كنت أهم بافتضاض واحدة حين سألتني وأيري على بابها: هل تحبّني؟ لا، أجبتها في أسف. حقاً؟ سألت غير مصدّقة. أجل، ولكني أعشق أردافك، أجبتها بصدق وقد تنحت من تحتي وجلست حذوي بعنين دامعتين. هل كنت ستفتضني وأنت لا تحبني؟ كيف تستطيع فعل ذلك؟ أنت وحش حقير، قالت وراحت ترتدي ثيابها، ثم صفقت باب البيت وغادرت. من يومها لم أحاول مضاجعة فتاة عذراء. لكني تعلمّت شيئاً عن نظريات النساء في ما يخص العلاقات الجنسية. المرّة الأولى يجب أن تتم في كنف الحب، ثم يُفتح باب النّيك بعد ذلك على مصراعيه. لكني لم أكن مستعداً للمشاركة في تلك المهزلة.

صديقتي الفايسبوكية مستعدة لمغامرة ليلية. سألتني إن كان عندي كحول في البيت. أجبتها بنعم، فوافقت على الخروج. كنتُ أخوض مخاطرة. ماذا لو كانت ما تزال عذراء؟ لكنّي رجّحت أنها لم تعد كذلك، فقد مضت سنة منذ التقينا. الكثير من الأشياء يمكن أن تحدث خلال سنة! ما شجعني كذلك أنها كانت بارعة في المصّ، رغم أنّ لا مجال للمقارنة بينها وبين تسنيم العظيمة.

رحت أقلّب صورها على الفايسبوك. كانت متوسطة الجمال مع ميل نحو البدانة. أذكر أني قابلتها في الليل المرّة السابقة، وكنت سكران. لاحظت كذلك أنّها لم تُحمّل صوراً جديدة منذ مدّة. بعض الأفكار المثبطة أخذت تُخامرني وتثنيني عن المضيّ قدماً. أسرعت بفتح جعة



أخرى شربتها على عجل حتى أستعيد رغبتي في الفتاة كاملة. أخيراً حسمت أمري وارتديت ثيابي وغادرت. لأكن متفائلاً، قلتُ في نفسي، الكثير من الأشياء يمكن أن تحدث خلال سنة. وحتى إن كانت ما تزال عذراء، أفضل أن تمصّني عن أن أستمني وأنام مثل مراهق بائس.

***

طوال الطريق إليها شعرت برغبة ملحّة في البول، والغريب أن أيري ازداد انتصاباً. أحس أني أفقد كل رغبة في المضاجعة كل ما اقتربت من بيتها. ما أرغب فيه هذه اللحظة هو أن يرتخي هذا الشيء الممدود حتى أتمكن من البول. أريد أن أبوووول! يا إلهي! مثانتي ستنفجر، وإحساس الغثيان يعاودني أقوى من ذي قبل. لذّة البول صارت الآن كل رجائي من الدنيا والآخرة.

ضغطت أزرار الهاتف في توتر؛ طلبتُ رقمها لأعلمها بوصولي. مضت دقيقتان ثم عاودتُ الاتصال، وصرخت بها هذه المرّة أن تسرع وإلا سأمضي، ثم أغلقت الخط من دون أن أمنحها فرصة للرد. الرغبة في البول تزيد التوتر. أشعر أني صرت بمزاج عصبيّ.

«هيّا هيّا»، أشرت نحوها من بعيد، وأنا أمعس المنبّه كي تسرع، وهي تغادر باب بيتها ملتفتة خلفها في توجس، والأضواء الساطعة تغشاها. هرولتْ نحو السيارة مُجفلة، مُشيرة نحوي بأن أوقف المنبه. ثم قفزت حذوي وقالت: «انطلق بسرعة».

«لو استيقظوا فلن تراني بعد اليوم»، أضافت بعينين معاتبتين، والسيارة تبتعد سيراً إلى الوراء، مرتجة من تعثرها ببعض الحفر.

اطمئني، لن أراكِ بعد اليوم، قلت لها في سرّي، هازئاً.



«لم تتغير»، قالت وهي تتأمل شكلي بنصف ابتسامة، محنية رأسها إلى اليسار قليلاً، مطمئنة إلى ابتعادنا عن بيتها.

«أعلم ذلك»، قلتُ باقتضاب. كانت مُتحمسة وكنت بمزاج متوتر.

«لم تعد تظهر كثيراً على الفايسبوك!» قالت وهي تنتظر أن أعقّب على كلامها. فأضافت وقد تواصل صمتي: «كيف أمضيت الأيام الأخيرة؟».

«في الخراء»، قلت بزفرة قصيرة، فاترة.

«آه! والآن؟» قالت ببقية أمل في فتح حوار.

«الآن أريد أن أبول»، قلتُ مركزاً على الطريق متلافياً حُفرة.

نظرت نحوي بغضب. خِفتُ منها. أحسست أنها ستخنقني، ثم قالت بصوت فيه ندم: «لم أرك منذ سنة تقريباً، ولست تجد غير حديث عن البول والخراء، تستقبلني به».

«لقد كنت مصاباً بإسهال، والآن أريد أن أبول». قلتُ لها ملخّصاً، ثم حكيت لها بعجالة عما حصل لبطني منذ أن أكلت تلك الوجبة المقرفة، مُسقطاً تفاصيل كثيرة عن انتصابي الفوضوي، وعن دورها في الحكاية إلى حد الآن.

لعنتُ ربّ البلديّة وعُمّال التّجهيز، والعجلة تتعثر في حفرة، والسيارة ترتج، وبطني تهتزّ، ومثانتي تنضغط، وإحساسي بالألم يزيد.

شعرت وأنا أركن السيارة أنها بدأت تندم فعلاً على قبولها دعوتي. فحاولت ألا أخسرها، ورحت أسألها عن «جديدها»، ونحن نصعد سلالم العمارة إلى الطابق الخامس حيث أسكن، سائراً خلفها، متابعاً



تمعّج أردافها السمينة، وسؤال واحد يلحّ على خاطري: هل ما تزال عذراء؟ مشيتها لا تُشبه مشية عذراء!

***

دخلنا شقتي فناولتها مباشرة جعّة باردة وشغّلت على الحاسوب لائحة موسيقية طويلة عليها مقاطع «لرحمانينوف»، تركتها تتدفق بصوت خفيض، واستلقيت على السرير الضخم لغرفة نومي، مسنداً ظهري إلى وسادة كبيرة سوداء.

افتضّتْ العُلبة وشربت جرعة كبيرة، ثم قالت ملتفتة نحو طاولة عليها كتب وعلب جعّة صفيح فارغة: «أليس عندك شيء يُقرمش مع البيرة، ؛ مكسرات، أو أي شيء؟!».

«ما هذا الفقر؟» أردَفت، مزيحة بعض ثيابي الوسخة الملقاة في إهمال فوق مقعدٍ، ووضعتها على البساط الرمادي على الأرض، وجلست على المقعد الخشبي.

«ألم يُطعموا ربّكِ قبل المجيء؟» قلت في نفسي، وأنا أفكر في مدّها بجواربي لتبدأ بالتهامها ريثما يجْهز حذائي المُحمرّ في الفرن. كنت أنتظر أن تجلس على السرير الواسع حذوي وتبدأ العمل بأسرع ما يُمكن. لكن يبدو أن استدراجها للسرير لن يكون أمراً سهلاً إطلاقاً. أريد أن أبول، يا دين الرّب؛ هذا كل ما أطلب.

أمرتْ أن أطفئ نور الحجرة وأشعل الفانوس الصغير على الطاولة - الذي أستعمله ليلاً عند الكتابة - وهي تقوم عن المقعد وتأتي لتجلس عند طرف السرير على اللحاف الأحمر. استبشرتُ لتلك الخطوة المهمة. إلا أنها طلبت مني أن آتيها بجعّة أخرى. قمت ببطء كي لا يتلاطم البول في مثانتي ويزيد الضغط، وأيري محافظ على انتصابه. فكّرت في لو أنها



بقيت تشرب على هذا النسق، فستفرَغ ثلاجتي ونحن لم نخلع حمّالة الصّدر بعد.

عدت إليها بواحدة وقد أحصيت كم تبقى لي بنظرة سريعة. «ألا تشرب؟» قالت وهي تلحظ أني جئت بجعّة واحدة فقط، لها.

«أشرب منذ الظهر؛ منذ عدتُ من العمل»، قلت.

«آه، ما هي أخباري الرازي، هل هناك مجانين جُدد؟ أعني مخابيل حقيقيين»، أضافت في شغف.

«أجل»، قلت. وأضفت: «ها هو أمامكِ».

«أوووف، هيّا، حدثني عن المخابيل، هل عايدت قتلة أو سفاحين؟».

«الرّازي ليس سِرْكاً»، قلتُ لها بغيظ مكتوم، وأنا أحاول الارتخاء قدر الإمكان، حتى يخفّ ضغط البول. «ما يحدث في الرازي، يبقى في الرازي».

«هل ما زلتِ عذراء؟» سألتها في هلع ونفاد صبر، وهي تقوم «لترْكز» علبة الصفيح فارغة على الطّاولة، فتتراقص العلب الأخرى وتتقارع.

نظرتْ نحوي في استغراب، ثم قالت: «ومن قال لك إني كُنتُ عذراء أصلاً؟».

«أنتِ»، أجبتُ مُباشرة.

«ومتى كان ذلك؟» قالت بنفس الاستغراب.

«السنة الماضية، لمّا التقينا».

«نسيت»، قالت بصدق.



«أنا لم أنس»، قلت.

«أجل، ما زلتُ عذراء»، قالت بأسف مُصطنع وارتياح كبير، وطلبت أن آتيها بجعّة أخرى.

«أنا كذلك «عذراء»»، قلتُ لها في ازدراء، ونهضت لأحضر الجعّة، لاعناً ربّ العذارى.

«تقصد أنّك لم تُقحِم خنصر قدمك اليُسرى في فرْج بعد، أليس كذلك؟».

لم أضحك لدعابتها الثقيلة، وقلت لها إنّي فعلاً «عذراء». وعليها ألا تطلب مني شرحاً، لأنها لن تفهم مهما حاولت، ثم غادرتُ غرفة النوم متثاقلاً.

عدتُ لها بجعّة، وجلست بنفس البطء، خائباً، وكل رجائي من ليلتي تحوّل إلى مصّة. رحت أرفع معنوياتي حتى لا ألقي بها من النافذة، فقد أقسمت في حياتي ألا أنيك عذراءِ أبداً، حتى لو منحتني مليون دينار.

«أشعر أني أحبتطكَ بإجابتي»، قالت وهي تشرب جعّتي الباردة.

«أجل»، قلت لها. «لو كنت أعلم أنكِ عذراء لما اصطحبتكِ إلى بيتي».

«هل تريد أن تُشعِرني بالذنب لأجل شيء ولدت به؟ أنت سادي بغيض».

«قوليها بصراحة، تعنين بالشيء الذي ولدتِ به؛ العاهة التي ولدتِ بها!».

«لن أفقد بكارتي إلا مع رجل أحبّه ويُحبّني»، قالت ببقية كبرياء،



مغيّرة وضعية جلوسها، متكئة على الجدار، مادة ساقيها، واضعة اليسرى على اليُمنى.

«هاهاهاهاها كلهنّ يقلن نفس الشيء، هذا القحب لا ينطلي عليّ»، قلتُ وبطني ترتج وأنا أضحك، لتزداد رغبتي في البول.

«أريد أن أتزوج لاحقاً، وأفكر حتى في وضع الحجاب والصلاة. لا أريد أن أمضي بقية حياتي وحيدة، أيمن. أنت تعلم أن الرجال التونسيين ليسوا كلهم مثلك. هم أبناء قحبة منافقون، ينيكون يمنة ويسرة، وحين يقررون الزواج، لا يتزوجون إلا عذراوات، حتى وإن كُنّ بفروج مُرقّعة. هذه هي الحقيقة للأسف».

حدجتها مفكراً في كلامها، باحثاً عن ردّ قاصم، فأشارت نحوي بجعّتها الفارغة. قمت بصعوبة، ومثانتي تكاد تستحدث لنفسها أيراً جديداً تبول منه. ثم أتيتها بجعّة ورحت أخلع ثيابي وبقيتُ في «سْليبْ»، وتمددت بجانبها.

«يستثيرني»، قالت بفسق، ناظرة إلى انتصابي تحت «السْليبْ».

ندت عن أيري حركة، تشبه هزّة الرأس، ثم عاد إلى ثبوته المرمري. مالت عليه، وراحت تداعبه بأصابعها فوق القماش.

«لا يبدو مُحبَطاً، على عكسك»، قالت وهي تقضمه بأسنانها بلطف، وشعرها الطويل الأشقر ينسدل على بطني مدغدغاً، قبل أن تتناول جرعة أخرى. «أشعر أنه أكبر من ذي قبل»، أضافت وهي تُبعد حافة «السْليب»، لتبرز بيضة مُعتصرة، أخذت في لعقها، ومصّها، ببطء. ثم لم تكد تنزل الحافة العُليا، حتى أطل عليها بكَمْرته، أحمر، غامقاً، كالغضب. «يا له من رغد»، قالت وهي تستقصي تعاريق جذعه النافر، حتى بلغت المنبت عند الخصيتين.



«إنّه شخص كامل، إنسان بطمّ طميمه. كم طوله؟» أضافت.

«الله أعلم»، أجبتها وظهرها يحجب عنّي أيري: «يطول ويقصر بحسب الظروف والمناسبات».

دلقتْ عليه بعض الجعّة، باردة، منعشة، ثم جعلت تمصه مركّزة على رأسه المحتقن. القحبة كانت تمصّ أفضل من فتاة غير عذراء. أنهت جعتها دفعة واحدة ورمتها على البساط وانقضت عليه تلوكه بافتراس، وقد استدارت من الجهة الأخرى.

باغتتني الهجمة الشرسة. لو كنتُ أعرف أن الأمور ستسير هكذا لوضعته في فمها منذ البداية وشغلتها به وأنقذت جعّتين على الأقل. كانت تفعل أشياء غير معقولة بلسانها، ورأسها يعلو وهبط في نفس الوقت. فُجاءة بلعته كله حتى منبته، شافطة ريقها معه ورأسها ترتعد حتى تكاد روحها تطلع، لتعود وتلفظه كاملاً، وتأخذ في لعق كمرته لاهثة، وريقها ينحدر عليه، فتلاحقه بلسانها كقطرات حلوة تنحدر من مخروط مثلجات.

مصّت باقتدار، بذكاء. مصّتني بعينيها كذلك وهي لا تضيّع لحظة لترى أثر عملها على وجهي. لكن الذّروة كانت بعيدة. معركة كبيرة محتدمة الآن بين مسلك البول ومسلك المني، كلاهما يريد تمرير بضاعته قبل الآخر. همّت برفع رأسها عن أيري بعد أكثر من ربع ساعة، وقد أحسستُ أنها ستطلب راحة، وجعّة أخرى، فأطبقت على شعرها مُبقياً رأسها عليه حتى لا يحيد، وأنا أعتدل قليلاً وأقول لها: «ليس الآن، ليس قبل أن أفرغ».

عادت تمصه بتنسيق بين اليد والشفتين. تصعد اليد في تموج مخروطيّ، فتنسحب الشفتان إلى أعلى، ثم تزلق اليد بنفس الحركة



هبوطاً، فيغيب بأكمله في حلقها مع الفم الهابط كالغمد، بينما اليد الأخرى تمعس خصيتاي بلين. كان مصّاً ثقيلاً ومركّزاً؛ احتواءٌ شامل. يبدو أنها تستعمل آخر أسلحتها. كان مصّاً عظيماً، إلا أن رغبتي في البول ما تزال تدفع بقوّة، وتفسد عليّ لذّتي. أحتاج إلى شيء آخر يزيد تهيّجي لتكون للمني غلبة على البول في صراع فتح المسالك. رحت أتخيل «كِيْرا نايتلي» مكانها، ثم «مونيكا بيلوتشي». «كِيْرا» كانت أفضل، وأصغر. عدتُ إليها. آه يا «كِيْرا»، رحتُ أقول في نفسي، هذا أوّل أير مختون تضعينه في فمكِ. أيرٌ مُسلم يا «كِيْرا»، بندبة هي نقش البرق على الحجر. هيّا يا بنت عيسى، أو موسى، أو أياً كانت ديانتك، مصّي هذا الأير الزنديق الخارج عن الملّة. إنّه الزّب يا «كِيْرا»، هل تصنعون مثله في أميركا؟ هل عندكم كلمة بهذا الوقع؟ الزّب؛ هو الرّب وقيد زِيد نقطة، نحن نعبد أزبابنا، نسبّح بخُصانا، فهل تشعرين بمجرى الله في فمكِ يا «كِيْرا»؟ قلت بصوت من يُسلخ حيّا.

«ااااااااه ااااااع ع اااااااااااااااااع ع ع ع، هيا يا «كِيْرا»»، صحت وماء الصّلب الرجراج ينبجس أخيراً: «واصلي، واصلي، هيّا». سمعت همهمة وأحسست برأسها يريد أن ينقشع عن أيري، لتسألني بماذا ناديتها، لكنني ثبّتها صارخاً في احتضار: «ليس الآن! ليس الآن وإلا خنقت ربّك!» فاض به فمها أخيراً، أبيض زبداً، نقياً. بعضه تسرب على الجذع منحدراً إلى المنبت، كذوْب الشمع على حديد الشمعدان.

تنفستُ بعمق، مرخياً يدي عن شعرها الأشقر وهي ما تزال تحتفظ به في فمها، وقد أخذ يتقلص ببطء إلى أن داخ تماماً. أبقته في فمها لبعض الوقت، ثم تركتني ونهضت، وخطفت كأساً بلورية شفافة، طويلة، موضوعة على الطاولة، أفرغت فيها حمولة فمها الثقيلة. كانت كأساً فارغة شربتُ فيها الماء قبل مجيئها.



«بماذا ناديتني منذ قليل؟» قالت وهي تقيس محتوى الكأس في يدها، وقد امتلأ أكثر من ربعها.

«كِيْرا»، قلتِ وأغمضتُ عينيّ في استرخاء.

«كِيْرا، كيرا نايتلي، الممثلة؟» سألت بحدّة.

«أجل، إنها تُشبهك»، قلت بكذب ضعيف المردود.

«أنت تستحمقني، إنها لا تَشبهني. لا تُشبهني البتّة».

«أجل، إنها لا تُشبهكِ»، قلت في استسلام.

«هل كُنتَ تتخي...» «أصمتي أرجوكِ»، قاطعتها، «أريد أن أنعم ببعض الهدوء، اذهبي إلى المطبخ، ما تزال هناك جعّة في الثلاجة».

انصرفتْ إلى المطبخ مغتاظة، وكأس المني ما تزال بيدها. سمعتها تصفق باب الثلاجة بعنف، ثم عادت وجلست على المقعد الخشبي، وفتحت علبة الجعّة. نظرتُ نحوها، كانت مخيفة؛ تمسك الجعّة بيمناها وكأس المني بيسراها، تُحركها، مرجرجة السائل داخلها، وشعرها المشوش التصقت بعض خصلاته الذهبية بجبينها المُتعرّق، وتحت عينيها هالة سوداء من الكُحْل الذائب.

«هذه إنسانية كاملة تهلك وتذهب هباء»، قالت رافعة كأس المني أمام وجهها، تتأملها على ضوء الفانوس المرهق.

نظرتُ نحوها محتاراً، وقلتُ: «فكّري في إنقاذ الإنسانية الحالية لو أن الأمر أحزنك إلى هذا الحدّ».

صبّت بعضاً من الجعّة في كأس المنيّ، فانتصفت، وراحت تُرجرِج الكأس. «اسكروا أنتم أيضاً»، قالت بميْعة السّكر. «هذا سيخفف عنهم،



سيموتون سكرانين على الأقل، لن يحسّوا بشيء وهم يَنفَقون انتشاء»، أضافت.

ابتسمت، ثم قلت لها: «هل تعتقدين أن مصير الإنسانية التي بيدك سيكون أفضل حالاً، لو قُدّر له أن يُقذف في رحم؟ في أحسن الأحوال، لن ينجو منها إلا حيوان منويّ واحد، أو اثنان، فقط، يسبقان البقية إلى البويضة ـ النجاة، ليشهدا في تشفٍ، موت البقية من وراء جدران البويضة الشفافة. إنهم يكرهون ويُعرقلون بعضهم بعضاً منذ النشأة الأولى».

«كم إنسانية هلكت في الظلام، لأجل أن تُنتخب الإنسانية التي ننتمي إليها؟!» هذا مؤسف، قالت بحزن سكران.

«أجل، هذا مؤسف، آخر شيء تفكّر فيه الحياة هو الحياة نفسها»، قلتُ وأنا أحسّ برغبة في ضمّها.

«هل تحبّ أن تذوق نفسك؟» قالت بغتة، مشيرة نحوي بكأس المني ـ الجعّة.

«سبق أن فعلتُ ذلك».

«حقاً؟» قالت في اندهاش.

«هل تعتقدين أن شخصاً مُحترماً مثلي، يحاول أن يكتُب كتباً، يدّعي فيها أنه جرّب وعرف بعض حقائق الحياة، لم يتذوق منيّه بعد؟» قلتُ في ثورة مفاجئة، ثم تركتها ذاهلة سكرانة ومضيت أخيراً إلى المرحاض لأبول.

***

ما ألذّ شَلْشال البول، ينز ساخناً، متدفقاً. تذكرت لمّا كنتُ صغيراً



أستطيب البول في شورت الاستحمام، واقفاً على حافة الشاطئ، أرتعد من البرد، أحصي المؤخرات والأثداء، والبول ينحدر دافئاً على ساقيّ.

«بُلْ شيئاً»، سمعتها تقول من بعيد، في تهكّم، وقد طال مكوثي في المرحاض.

«سأترك شيئاً منه أسقي به شعركِ الأشقر»، صحت بها.

«ماذا قلت؟» صاحت.

«أقول إنّكِ تُشبهين الحسناء كِيْرا نايتلي»، قلتُ وأنا أعيد أيري إلى «السْليب» الأسود.

«ماذا؟» صاحت مرة أخرى.

احتقرتها.

مضيتُ إلى المطبخ، فتحت الثلاجة، أحصيتُ ذخيرة الجعّة المتناقصة في هلع، أخذت واحدة، فتحتها وشربت منها جرعة، وعدتُ إلي غرفة النوم.

«لم تُحضر لي واحدة»، قالت مشيرة إلى الجعّة في يدي. «أنت أناني».

«الحانة أقفلت يا حبيبتي، يجب أن ننام الآن».

تمايلت وقالت بصوت من تعتعه الكحول: «أريد أن أسكر، أريد أن أسكر»، ثم راحت تخلع ثيابها وتمددت حذوي على السرير، عارية.

أحسست أني وقعت في فخ نصبته بيديّ، كيف سأتخلص منها هذه الليلة؟ كانت الساعة الرابعة والنصف صباحاً. ناولتها جعّتي لتخرس، واتكأتُ على الوسادة الضخمة مسنداً إياها إلى الجدار. فزحفت لتأتي جانبي بعينين نصف مغلقتين.



«هل ستنام؟ ألم تعد ترغب فيّ؟» قالت بصوت مائع.

«أعمل باكراً»، قلت.

«هل ستتركني لوحدي؟ لا تتركني لوحدي»، تضرّعت.

«لن أتركك لوحدك، سأكون نائماً حذوكِ».

أنهت الجعّة وقذفت بعلبة الصفيح على الأرض فارغة، ثم تمددت على ظهرها وراحت تدعك نهديها الممتلئين وتضغطهما وتضمّهما إلى بعضيهما بعضاً، ثم بللت وسطها بريقها وأخذت تفرك بظرها لينبعث صوت انزلاق لزج ورطب.

نظرت أمحّص في هذا الشيء الملتهب قربي على اللحاف الأحمر؛ كانت لحيمة، شقراء، بشفاه غليظة وردية، وأنف كبير وعينين واسعتين خضراوين. كل شيء في جسمها اللحيم كان كريماً: ردفاها، ثدياها، إلا فرجها.

«أوقفي هذا السّرك»، قلت. «هذه قلّة احترام».

أيري راح ينتصب من جديد.

«توقفي وإلا سأضطر إلى اغتصابكِ»، قلتُ وأيري يطل برأسه من حافة «السْليب».

«جرّب، لا أخشاك»، قالت تتلوى، مُستمنية، مغمَضَة العينين.

«لستُ أمزح»، قلت.

«أنا كذلك»، ردّت بسرعة.

«لقد حذّرتكِ»، قلتُ وخلعت «سْليبي» وقفزت فوقها كلاعب «روديو» يعتلي ثوراً أبلق هائجاً.

رحت أقبّلها بافتراس، وأمطّ لساني عميقاً في فمها وهي تشفطه



وتلف حوله لسانها في جنون، وأيري يزلق بطنهُ بين شفري فرجها المبتل كطوفان. كانت مثل جبل جليدي يذوب؛ متعرقة، حامية، مُنصهرة. كل هذه الكثافة الجنسية مُعطّلة لأجل تفصيل بسيط! كل هذا الإنتاج الشبقي متوقف لأجال بكارة بلهاء! لماذا يا ربّ الأبكار، لماذا هذا القحب يا إلهي؟ زحفتُ جلوساً على بطنها، ليصير أيري بين نهديها، فدفَعتْ رأسها نحوه وتلقّمته. لم تظفر منه بغير الحشفة المنتفخة، امتصتها في نهم. رحتُ أرهز بين نهديها المنغلقين أفضل من رحم. الانزلاق كان رائعاً، ولذيذاً. كنتُ أركب الشيء الأشقر الهائج صارخاً: «أفضل من فرج! أقسم أنه أفضل من فرج!» كنا متعرقين ننزف جعّة وشبقاً. صرنا انزلاقاً محضاً. «عندي فكرة»، قلت وأنا أنهض عنها. «سنلتف على حكاية البكارة هذه. سأحولكِ إلى حقل من الفروج المفضوضة. سأحوّلك إلى حديقة فروج متفتحة الزّهر». تركتها ممدودة على ظهرها وثنيت ركبتيها، لتنطبق ربلتاها على فخذيها الممتلئين، وينشأ فرج على كل جانب. ضمّختُ أيري في فمها ثم أولجته في تلك الطيّة الناشئة وجعلت أرفس على رُكبتين. أقسم أن فرجك سينفتح من تلقاء نفسه. أقسم أن بكارتك ستنفلق غيرة، كرمانة أنضجها اللفح. غيّرتُ الرّحل مُجرّباً فرج الساق اليمنى. جعلت أدخل فيه وأخرج بسرعة، ماسكاً ركبتها بيديّ وكل جسمها يرتعش منتشراً تحتي، ونهداها العارمان يفيضان. ثم أسندتها جالسة وأقحمته في فمها. ابتلعته وراحت تمصّه وأنا أرهز عشواء، أضرب يمنة ويسرة. انتفخ حنكاها من الداخل، وانبعجا وهو يظهر كل مرة على جانب، وأحياناً يتيه عميقاً في حلقها. سحبته مبتلاً ورحت أنيكها من ثنية إبطها الأيسر، ضاماً زندها إلى جنبها، ممسكاً بيدٍ كتفها، وبالأخرى شعرها الأشقر. كانت مستسلمة تماماً، تطلق آهات متقدة ولهاثاً ساخناً وقد بلغت هزّة النيك أكثر من



مرّة. قلبتها على بطنها وأقحمتهُ في دبرها، ورحت أرفس فيها مصفّقاً. كنت أحتويها؛ ظهرها ملتصق بصدري، لساني يلعق شحمة أذنها، يدي تلتف على حوضها وتزلق نحو بظرها المنتعظ، والأخرى تمضي لتعصر ثدييها وتقرص حلمتيها المدببتين. كان نيكاً حقيقياً؛ نيكاً شاملاً؛ نيكاً ضارياً؛ نيكاً مُنفلتاً. هذا هو نيكُ العذراوات، فلا تغضبنّ يا ربّ العذارى. سأنيك كل شيء فيها وأترك لك البكارة. سأحرث كل شيء حرثاً، إلا البكارة، سأبقيها لك جافة، متيبسة، سوداء، كقديد منسي لعام كامل على حبل الغسيل. أنشبتُ أسناني في عضلة كتفها الأيمن وأنا أقذف أخيراً وأفرغ حيرتي في قعر مؤخرتها، وهي توحوح تحتي، تتأوّه وتنتفض كحيوان مصاب بطلق أو نبل.

همدتُ فوقها وهمدتْ تحتي، وارتخت أساريرها، أخيراً، وجسمانا ملتصقان تماماً بفعل العرق. بقينا في تلك الوضعية، مُكدّسين، لحماً بشرياً منهكاً وضائعاً. كومة شبق مُستنفد. جسمان بشريان، اكتشفا أن لا معنى آخر، صادق، خلافاً للسكر والشبق، يستحق أن يُنفِقا فيه نفسيهما.

قمت عنها ومضيت للاستحمام. عدت ألفّ منشفة حول خصري وتمددت فوق السرير وإحساس الغثيان يُعاودني قوياً. حتى علبة أقراص الحموضة التي أتناولها كانت خالية. عادتْ من المطبخ بعلبة جعّة. جلست عارية على المقعد الخشبي. ثنت ساقيها ورفعتها على المقعد مواربة فخذيها، لتطل أطراف أقدامها من الحافة الخشبية. رحت أنظر إلى شفري فرجها الغليظين، وشعر عانتها الكثيف، وبظرها الفاتر، والمنيُّ ينحدر من ثقب مؤخرتها على خشب الكرسي، ثم قلت لها: «هذا فرج عابس؛ فرجكِ مُكتئب».



«لماذا لا تُعالجه؟ ألست نفسانياً؟» قالت.

«فرجك ميؤوس منه»، قلت وألقيتُ نظرة متعبة عبر النافذة وضوء النهار يأخذ في الانتشار.

أشارت نحوي بجعّتها في سكر، وغمغمت شيئاً غير مفهوم، ثم سألت والصوت يخرج من فمها بصعوبة: «ما الفرج، أيها النفساني؟».

«الفرج سوء تفاهم»، قلت لها متابعاً ضوء النهار الوليد.

«الفرج فخّ»، قالت. ثم أضافت: «والأير؟» وتناولت جرعة، تجشأت بعدها مشيحة بوجهها.

«الأير ناصب فخاخ»، أجبت.

«الأير ينصب فخاخاً يقع فيها، والفرج صدّق أنه فخ، أهذا ما تعني؟» قالت ببصيرة السّكران.

«تقريباً»، قلت. «الأير يجب أن يكفّ عن كونه أيراً، والفرج كذلك. كلاهما عليه أن يستحدث لنفسه اسماً جديداً، ومعنى جديداً».

«أحبّك»، قالت منهية جعّتها، عاصرة علبة الصفيح.

رميتُها بتكشيرة مستنكرة، كانت شيئاً مُرعباً وسكران.

«أريد أخرى»، قالت وهمّت بالنهوض.

«دعي جعّتي وشأنها، أرجوكِ، ما تبقى لا يكاد يكفي ليومين، ولن أقبض مرتبي إلا بعد أسبوع. أرجوكِ، لا تتركيني أعزل في مواجهة الأيام، دعي لي ذخيرتي».

«أشعر بالعطش»، قالت بحزن وخيبة.

«أنا كذلك»، قلت لها. «أرجوكِ»، أضفت في تضرّع حقيقي.



«أشعر بالعطش»، كررت كالمجنونة. وقامت إلى كأس المنيّ - الجعة وشربتها دفعة واحدة.

«أرجوكِ»، قلت. «لا أنا، ولا منيّ، ولا جعّتي، من سيطفئ ظمأكِ هذا الفجر. أنت عطشانة إلى شيء آخر».

«أنت أناني»، قالت وتمايلت سكرانة.

«أجل»، قلت. «افعلي مثلي لو استطعتِ، لكن دعي جعّتي. هيا ارتدي ثيابكِ، سأوصلك وأعود لأنام قليلاً»، أضفتُ بحزم، وقمت أرتدي ثيابي.

«أنت تتخلى عنّي في عرض الليل»، قالت.

«الصباح يوشك على الطلوع. لم يعد ليلاً، هيا، ارتدي ثيابك بسرعة».

«أنا ضائعة»، قالت باحثة عن «سليبها».

«أنا أيضاً»، قلت وسحبتُ حمّالة صدرها من تحت السّرير.

«أنت لديك الجعّة»، قالت وهي تنهض في صعوبة.

«هل أعجبك جسدي؟ هل تجدني سمينة؟» تابعت مترنحة وأنا أسندها لتحشر نصفها السفلي حشراً في سروالها الجينز الضيق.

«مؤهلاتُك لا بأس بها، لكن يجب أن تعتني بشكلك أكثر. وعليكِ خاصّة تسوية وضعيّة فرجك، لا يمكن أن تبقي مسدودة إلى الأبد»، قلت وتركتها لأرتدي حذائي.

«أيمن»، نادتني بصوت ناعس.

«ماذا؟» قلتُ وأنا أرفع «ستور» الشباك الخشبي بأكمله، ليدخل نور الصباح الوليد.



«كم عمرك؟».

«تسع وعشرون».

«وأنا عمري اثنتان وعشرون».

لم أعلّق، ورحت أحثها على الإسراع.

«هل أنا ابنتك؟» قالت وتعثرت في حذائها لتهوي وتُسقِط كل علب الجعةِ الفارغةِ على الطاولة، في محاولتها اليائسة للتشبث بشيء مّا.

«أجل»، قلتُ بغضب مكتوم. «أنتِ ابنتي الشقيّة، هيّا، قومي وارتدي ثيابكِ وإلا سأغضب».

«إن كنتُ حقّاً ابنتك، فلم لا تحضر لي جعّة. هل سترفض لابنتك طلباً؟».

ابتسمتُ في نفاد صبر. أطلقتُ زفرة قصيرة، ثم قلتُ لها وأنا أعينها على النهوض: «لو كنتِ ابنتي لما تركتكِ تشربين قطرة واحدة من الكحول، ولاكتفيت بمضاجعتك منذ أن بلغتِ سن التاسعة».

***

غادرنا البيت أخيراً، وقد راحت تطأ أدراج السلّم في صعوبة، وأنا أمسكها من زندها كي لا تسقط وتتدحرج على السلم.

«هل سأحبل، لقد أفرغت داخلي؟» قالت بميعة وعينين مغلقتين.

«ماذا؟» هتفت مُستنكراً، تاركاً ذراعها، لتفلت مني وتسقط فتتدحرج ستة أدراج وتتكوم في الأسفل عند مدخل العمارة.

«أجل»، تابعت في غضب، «ستحبلين وتضعين من مؤخرتك الضخمة خراء كبيراً مثلك».

لم ترد، ولبثت مكومة بلا حراك.



«هل مُتِّ؟ الآن بتنا متأكدين أن الحمل قد سقط»، قلتُ وقفزت نحوها أتفحصها. جعلت أقرصها من خدها، ثم صفعتها لتصحو. أفاقت أخيراً، وراحت تدبّ على أربع، قبل أن أسندها بصعوبة وأرجعها إنساناً يمشي على اثنين.

«لقد سقطت»، قالت بضحكة بليدة، قطَعها تجشؤ مقرف.

«لا بدّ أنّه دُوار الحوامل»، قلتُ وأنا أكاد أدوخ من رائحة فمها القذرة، قبل أن تنكشف لي تفاصيل وجهها، وضوء الفجر يفضح قبحاً حجبه الليل والكحول. كانت مخيفة، وعاودني إحساس الغثيان وأنا أتذكر أني كنتُ أضاجع هذا «الشيء العذراء». قدتُ السيارة بسرعة، أسابق الفجر، حتى لا يُباغتني ضوء النهار وأرى المزيد منها. كان سباقاً مع النور. يجب أن أوصلها قبل أن يكتمل تحوّلها وتفترسني. تكلمّتْ بصوت ناعس متكئة على زجاج النافذة المغلقة. كانت تلغو بأشياء لا تُفهم. ولم أكن أجرؤ حتى على الالتفات جهتها. أخيراً بلغنا بيتها فأنزلتها من السيارة وأسندتها إلى باب الفيلاّ التي تسكن، وتركتها تفتش عن المفتاح في حقيبتها ثم غافلتها ولذت بالفرار.

***

شعرت بصداع الخُمار ورغبة في القيء والسيارة ترتج في سيرها على الحفر والمطبّات. سأعود للبيت وأستحم ثانية، ثم أنام لساعة أو اثنتين قبل أن يحين موعد الذهاب إلى العمل. كم وددت لو لبثت نائماً حتى الليل. لم يكن في استطاعتي التغيّب عن العمل، فقد أتيت على كل أيام عطلتي. هذا آخر الرمق. أشعر أني مثل إسفنجة عصرت عصراً حتى تمزقت، لكن لا بد أن أسير إلى العمل. لا بد أن آكل، لا بد أن أشرب، أن أضاجع، أن أخرأ، أن أبول. لا بد أن أهذب شعري



وأظافري ولحيتي، لا بد أن أغسل ثيابي، لا بد أن أتسوق، لا بدّ أن أقترض مالاً لأسدد به قروضاً أخرى. لا بد أن أقتصد وأن أسدد الفواتير وإيجار البيت. لا بد أن أغسل السيارة، لا بد أن أنتظر في رتل الزحام، لا بد أن أعالج ضرسي، لا بد أن أداوي قرح معدتي، لا بد أن أزور والدي وأن أعتني بإخوتي، لا بد أن أحتمل الآخرين، لا بد أن أحتمل العالم، لا بد أن أحتمل نفسي... كنتُ منهكاً وممتعضاً من كل شيء. خاصّة بعد أن فقدت علياء وفقدت أمريكاي معها. فكرت أن أصدم السيارة في عمود كهرباء ضخم لاح لي من بعيد، لكنني لم أجد الشجاعة والقوة لفعل ذلك. بضعة أمتار تفصلني عن العمود وضعفها لبلوغ آخر الشارع والخروج إلى الطريق الرئيسية. فجاءة اقتحمت الشارع سيارة بيضاء تسير بسرعة كبيرة مما جعلها تنعطف في صعوبة وسائقها يفقد التحكم لتندفع بسرعة هائلة وتصطدم بعمود الكهرباء الضخم الذي كنت أفكر في أن أصطدم به. لقد فعلها أحدهم قبلي. شخص أكثر تصميماً وشجاعة. ضغطت الفرامل في حدّة ـ ولحسن حظي أني كنتُ أسير ببطء ـ لتتوقف سيارتي على مسافة قصيرة من السيارة التي تحطمت مقدمتها بشكل مخيف، لفرط ما كان الاصطدام عنيفاً، راح سائل مُلوّن يسيل من مقدمتها المعجونة وظهرت لطخة حمراء ضخمة على الزجاج المهشم في ما يبدو أنه أثر اصطدام وجه أو رأس أحد الركاب.

توقفتْ بجانب سيارة «البولو» المهشمة سيارتان أخريان من نفس النوع واللون، وأنا ألحظ أن لوحات السيارات الثلاثة كانت زرق اللون، ما يُشير إلى أنها سيارات مُؤجّرة. انفتحت أبواب السيارتين الأماميةُ بغتة، لينزل منها أربعة من الشبان السّود الأفارقة، ببناطيل وقمصان بيض فخمة، وقلائد برّاقة. كانوا عائدين من سهرة ما على ما أظن؛ هناك ملهى أفريقيّ معروف في الجوار. انفتحت الأبواب الخلفية كذلك لتهبط



منها أربع حسناوات أفريقيات، طويلات، بأحذية عالية الكعب وألبسة قصيرة، هي قِطعُ قماش لا تكاد تستر نهودهن ومؤخراتهن الثائرة على الطبيعة والمستحيل. كدت أبكي أمام ذلك الجمال الفجري المهيب، وأنا أراهُن يتقدمن مرتبكات رفقة الفتية نحو سيارة أصدقائهم لسحبهم منها.

تلطخت ثياب أحد الفتية بدماء قانية، وهو يسحب السائق الذي كان فاقداً للوعي، دامي الوجه والصدر، ويحمله على كتفه مترنحاً، مسرعاً به نحو سيارته لنقله إلى المستشفى. سقط الشاب الأفريقي الطويل الذي يبدو أنه كان سكران منهكاً من السهر والرقص، ليسقط زميله المصاب فوقه في مشهد قاسٍ أليم.

كنتُ محتاراً بين النظر إلى الأفريقيات خارقات الجمال، ومتابعة الرجل المترنح، يحتمل زميله المصاب خارقاً كل قواعد الإسعاف. أخرجَ زميلهُ كذلك من السيارة شاباً آخر فاقداً للوعي، عليه جروح تبدو طفيفة، وحمله إلى سيارته. لؤلؤتان سوداوتان خرجتا كذلك من السيارة المهشمة. ترنحتا وهما تمشيان مذهولتين. لا تبدو عليهما آثار إصابات، عدا الصدمة والهلع، وهما تريان صاحبيهما المضرجين. تعثرت إحداهن وكادت تسقط، ليسقط قلبي بدلاً عنها، وهي تسير بفردة حذاء واحدة. كانت أجمل امرأة وقعت عليها عيني. بكيت لبكائها على رفيقها وقد ترجّلتُ من سيارتي مقترباً من تلك الملائكة السّود. كانت هبة من الفجر، أملاً لألاءً، شتيمة في وجه القبح والعبث. لم أتفطن لأن المكان بات يعجّ بأناس برزوا من حيث لا أدري. كانت الشمس توشك على البزوغ، والمكان شبه المقفر منذ قليل، بات غاصّاً بأناس متلصصين، برزوا من تحت الأرض، ومن وراء الجدران، ونزلوا من السيارات والحافلات، ليتحوّموا حول السيارة المهشمة، كالغربان والطيور آكلة الجيف، يشتُمُون، ويشمتون في الشبان الأفارقة، الذين صعدوا إلى



السيارات وانطلقوا بزملائهم المصابين إلى المستشفى، يلاحقهم سُباب عنصري وتعاليق حاقدة متشفية.

طار الملاك وبقي الشيطان. غاب الجمال واحتشد القبح يدوس ويلعق الدم السماوي على الأرض. كنت ما أزال واقفاً بعيون دامعة أمام حَشد البشاعة والحقد ـ حِقد من لا ينتبه لشروق الشمس وغروبها، لأنه يكون دائماً إما في طريقه إلى العمل، وإما عائداً منه. شعرت بالقهر، فقدت أملي في الحياة مرّة أخرى، أردت الصراخ والسُّباب، لكنني لم أستطع إلاّ أن أسقط على ركبتي، مهزوماً، وقد رحت، أخيراً، أتقيأ وأتقيأ وأتقيأ... وهناك، في الخلف، وراء الحشد الشّامت، كانت الشمس تُشرق من القيء.



الفهرس



هذا الكتاب

«أنا أيمن النفساني»، صحتُ من النافذة عبر الطرقات المُقفرة: «في آخر أيام هذا الرّبيع الأول من العام الأول للثورة، أقول لكم إنني كنتُ هنا، مشيتُ هنا يوماً، على هذه الأرض، وتجولت في هذه الطرقات، تحت هذه السماء المتلألئة. أقول لكم، إنني التهمتُ بيضاً كثيراً، وتلقيتُ ضرباً مُبرحاً، وسُلبتُ مالي، وفقدتُ ضرساً، وحلمت أحلاماً عظيمة. أنا أيمن، أحسّ هذه اللحظات أنني أسعد أهل الأرض، وأحبّ جميع النّاس على حدّ السواء. وأقول لكم إنني تقيأتُ قيئاً أصفر جميلاً، وحاولتُ أن أرفع الحياة إلى مستوى أعلى، وسأظلّ أحاول وأحاول...».



رسمة الغلاف: جنية مسعودي


ISBN 978-9933351700

